Arabian Gulf Journal of Humanities and Social Studies

ISSN: 3080-4086

الإصدار السادس - العدد السادس عشر || تاريخ الإصدار 2026-07-20

رسالة إلى مثقف مشهور- كيف نبني خطابً ثقافيًا مبدعًا

A Letter to a Prominent Intellectual: How Can We Build a Creative Cultural Discourse?

محمد عبد الرزّاق المصري

Mohammad Abdul Razzak El-Masri

كليّة الدعوة الجامعيّة - للدراسات الإسلاميّة - قسم الدراسات العليا – بيروت - لبنان

DOI: https://doi.org/10.64355/agjhss61623

مجلة خليج العرب للدراسات الإنسانية والاجتماعية || هذه المقالة مفتوحة المصدر موزعة بموجب شروط وأحكام ترخيص مؤسسة المشاع الإبداعي(CC BY-NC-SA)

الملخص:
يتناول هذا البحث إشكالية الخطاب الثقافي الذي يقدّمه بعض المثقفين المشهورين في القضايا الدينية، ومايحدثه من بلبلة فكرية لدى العامة، وتكمن جوهر المشكلة في خوض المثقفين في الأحكام الشرعية دون معرفة بأصولها ومقاصدها، وتقديم الرأي الشخصي على النصوص الشرعية بحجة الحرية والتجديد.

ويهدف هذا البحث إلى الإجابة عن سؤال مركزي: كيف ننتج خطابًا ثقافيًا مبدعًا يخاطب المثقف المعاصر ويعيده من دائرة ثقافة الشك اللادينيّة إلى الثقافة العلميّة التي تدرس الدين بدراسة منهجية رصينة؟

ولتحقيق ذلك، سعى البحث إلى تقديم "رسالة نصح" إلى المثقف المشهور، تتضمن منهجية لإنتاج خطاب ثقافي مبدع وسليم يجمع بين الخبرة الدنيوية والفهم الصحيح للدين. وقد اعتمد البحث المنهج الاستدلالي والبلاغي، مدعومًا النصوص الشرعية وأقوال العلماء والشواهد العلمية والأدبية.

وتوصل البحث إلى عدة نتائج أهمها: أن المنطق العلمي يقتضي معرفة أصول أي علم قبل الخوض في فروعه، وهذا ينطبق على علم بالدين من باب أولى، وأن وجود الرسل ضرورة عقلية لهداية البشر، وأن النظم الإسلامية متوافقة مع الفطرة والعلم وأن التمسك بالدين لا يتعارض مع الحرية بل هو الضامن الحقيقي لها.

وختم البحث بعدة توصيات أهمها: ضرورة أن يبدأ المثقف خطابه بعد التزود بمعرفة أصول الدين، وتخصيص جزء من الجهد الذي بذله في تخصيصه لتعلم الدين، وتحمل وسائل الإعلام مسؤولية تقديم الخطاب الديني الرصين بلغة العصر.

الكلمات المفتاحية: المثقف المشهور، الخطاب الثقافي، الدين والعقل، الإعجاز العلمي في القرآن، الحرية في الإسلام.

Abstract:

This research addresses the problem of the cultural discourse presented by some well-known intellectuals regarding religious issues, and the intellectual confusion it causes among the public. The core of the problem lies in intellectuals discussing religious rulings without knowledge of their principles and objectives, and in prioritizing personal opinion over divine texts under the pretext of freedom and renewal.

This research aims to answer a central question: How do we produce a creative cultural discourse that addresses the contemporary intellectual and brings him back from the circle of non-religious doubt to a scientific culture that studies religion through a sound methodological approach?

To achieve this, the study presents an 'advisory letter' to the well-known intellectual, outlining a methodology for producing a sound and creative cultural discourse that combines worldly expertise with a correct understanding of religion. The research adopted an inferential and rhetorical approach, supported by religious texts, scholars' statements, and scientific and literary evidence.

The study reached several key findings: that scientific logic requires knowing the fundamentals of any field before engaging in its branches, and this applies even more so to the knowledge of religion; that the existence of messengers is a rational necessity for guiding humanity; those Islamic systems are consistent with human nature and science; and that adherence to religion does not contradict freedom but rather is its true guarantee.

The research concludes with several recommendations, the most important of which are: that the intellectual should begin his discourse only after acquiring knowledge of the fundamentals of religion; that he should dedicate part the effort he exerted in his specialization to learning about religion; and that media outlets should bear the responsibility of presenting sound religious discourse in the language of the age.

Keywords: Well-Known Intellectual, Cultural Discourse, Religion and Reason, Scientific Miracles of the Qur'an, Freedom in Islam.

المقدمة

إنّها دعوة محبة لكلّ مثقّف مشهورٍ أرجو منك أن تصبر وتكمل القراءة بإمعان وتفكّر بعيداً عن الأحكام المسبقة ولا تتسرّع، فتُعرض منذ البداية، أكمل للنهاية، لعلّك تجد ما يثير إعجابك، دع عقلك يحكم وليس عاطفتك، فكم من فرصة ضاعت لأننا رفضناها قبل أن نحاول فهما؟ فالحكمة تظهر في التفاصيل فلا تترك القراءة إذا لم تعجبك بعض الأفكار فلعلّك تجد ما يشفي صدرك في النهاية.

أخي المثقّف المشهور، أنت قد بلغت بجهدك مرتبة عالية في الدنيا وكانت مبدعاً متفوقًا قي اختصاصك لذلك لذلك حصلت على لقب المثقّف المشهور، وهذا جهد لا ينكر، وكلامي إليك هو تقدير لجهدك واعترافٌ بقدرك، ولكنني أحببت أن أوجه لك نصيحة محب لأنني قد لاحظت من خلال سماعي لبعض المشهورين أنّهم عندما يورطهم المذيع في التكلّم بالدين يجيبون بشكل ارتجالي ويأتي جوابهم بشكل سريع حتى لا يحرجوا أمام الكمرات فيكون الجواب في أحيان كثيرة لا يتوافق مع ثوابت الدين.

هذه الكلمات ليست محاكمة لك، بل هي دعوة لتضيف إلى ثقافتك الواسعة وتفوقك البارع في اختصاصك، قدرًا من العلم بالدين، فالدين جزء مهمّ من ثقافة كلّ العصور فلا تكتمل ثقافة أي مثقّف إذا لم يأخذ بحظه من الثقافة الدينيّة، فافتح قلبك لهذه الكلمات لا بوصفها هجوماً بل بوصفها رسلاة مودة ومحبة حتى لا تقع في الإحراج أمام أسئلة المذيع.

أهمية الموضوع

نحن في زمن الهيمنة الإعلاميّة، حيث تمتلك وسائل الإعلام سلطة توجيه الرأي العام، وهي سلطة لا لون لها بذاتها، بل تنشر أفكار من يستخدمها، فأحياناً تكون منبراً للقيم الصالحة، تنشر الوعي وتنتصر للإنسان، وتعلي من شأنه الفكر والفضيلة، وأحياناً أخرى تكون معول هدم، تروج للقيم الرخيصة، وتكرّس التفاهة، وتختزل الإنسان في شهوة الاستهلاك.

تطالعنا في كلّ يوم محطّة من المحطّات الإعلاميّة، بإجراء مقابلة مع أحد المشاهير، قد يكون فنانًا مشهورًا أو سياسيًا لامعًا، أوطبيبًا بارعًا في اختصاصه، ولكنّ الذي يحدث في المقابلة وأثناء الحوار، فالأولى أن تسأله في اختصاصه كي نستفيد من خبرته في مجاله، أمّا سؤاله خارج اختصاصه فماذا سيفيد المستمعين؟ فيجيب بغير دراية وعدم إحاطة بما هو خارج اختصاصه فتحصل المضرّة، وذلك بغاية الإثارة الإعلاميّة لشد المشاهد عبر استخراج آراء غير دقيقة تثير الرأي العام.

فهل من الحكمة أن تسأل الفنان المشهور عن رأيه في طب العيون أو جراحة شرايين الدماغ، الجواب طبعًا، لا. إذن كيف يليق بك أن تسأله عن رأيه في علوم الدين؟ فتحرجه ليقع في الخطأ، وقد يؤثّر خطأه على كثير ممّن يستمعون له ويحبونه، فيظنون أنّ رأيه هذا عن دراية ومعرفة، وفي ذات الوقت يكون جوابه سطحيًا لا يجاوز الوهم الحائر. أما آن للإعلام أن يكون منبراً لبث الوعي الهادف في صفوف أبناء المجتمع؟

فلذلك أحببت أن يكون بحثي هذا هديّة ونصيحة إلى كلّ مثقفٍ مشهورٍ، من باب المحبة والحرص على المصلحة العامّة، إذ ينبغي على كلّ مشهورٍ أن يعرف الخطوط الأساسيّة في الدين، حتّى لا يكون عرضة للإحراج فيقع في الخطأ الذي قد يؤدي إلى خطأ من يتأثّر به من محبيه، فيكون في ذلك سببًا في هلاك غيره، فكما يُمنع غير المختص في علم الطب من ممارس مهنة الطب، حتى لا يضرّ الآخرين، كذلك ينبغي أن يُمنع من لا يعرف في علمٍ معيّن من التحدّث فيه، وبخاصّة علم الدين.

فهل من الحكمة والرأي السديد، إذا تعطّلت السيارة الفخمة التي يمتلكها المثقّف أو الطبيب أو الفنان المشهور، أن يبدأ بفتح غطاء المحرّك ثم يبدأ بفكّ اللوحة الإلكترونيّة، أو بعض القطع المهمّة في المحرّك، أم عليه أن يستدعي مكانيكيًا مختصًّا بصيانة السيّارات الحديثة؟ طبعاً، جواب الجميع يكون: أن نحضر ميكانيكيًا مختصًا، ليصلح العطل، وهذا ينبطبق على كلّ اختصاص، فاسأل به خبيرا.

ومن باب أولى وأهمّ أن تُستعمل قاعدة (فسال به خبيرا) بشأن التكلّم بمسائل الدين، فينبغي أن يُسأل بها المختص، وهذا لا يعني أنّه لا يجوز أن يتكلّم أحدٌ بالدين! لا نقصد ذلك، فالدين ليس حجرًا محجورًا، بل يتكلّم إذا أراد، ويُستحب ذلك، ولكن عليه أن يطّلع على المسائل الدينيّة قبل أن يتكلّم بها، وهذا ميسور للجميع.

أيّها المثقّف الحبيب، تكلّم بما تشاء ولكن شرط أن تكون مطّلعًا عليه من مصادره ومن أصحاب الإختصاص به، تكلّم بما عرفت وتوقف عن الأشياء التي لم تطلع عليها، فالأفضل للمسؤول وللمستمع ألّا يجيب عمّا لا يعرفه، فلو سُئل إنسانٌ عن عنوان إحدى الشركات، وهو لا يعرفه، فأخذ يجيب

السائل ويشرح له طريق الوصول بغير علمٍ، أيكون قد أفاد السائل؟ أم يكون قد أضرّ به وأتعبه بمزيد من إضاعة الوقت، بالوصول إلى المكان الخطأ؟

لذلك أيّها المثقّف المشهور، أريد منك أن تتكلّم في الدين لأنّك تملك جمهورًا محبًّا يتأثّر بقولك، ولكن أنصحك أن تعرف الحدّ الضروري من المعلومات الدينيّة الصحيحة، كي تسفيد منها فتزداد ثقافةً ومعرفةً، ويكون كلامك في محلّ إفادة للمستمعين، فإنّ لكلامك أثرًا كبيرًا على محبيك وجمهورك العريض، وقد تكون أفيد من واعظٍ لا يصل كلامه إلّا إلى عددٍ قليل.

وقد أعددت في هذه الورقات القليلة أساسيات لا بد من معرفتها قبل التحدّث في الدين، وأسأل الله تعالى أن تكون هذه الورقات نصيحةً خفيفة الظلّ، يستفيد منها كلّ مثقّفٍ مشهور حريص على الخير لجمهوره العريض

الإشكالية

تكمن إشكالية هذا البحث في تنامي ظاهرة تصدّر بعض المثقفين والمشاهير من غير المتخصصين في المسائل الدينيّة عبر وسائل الإعلام ومنصّات التواصل الاجتماعي، وينتج عن ذلك أثر سلبي على جمهور عريض من المعجبين والمتابعين.

فكلام المشهور قد يكتسب وزناً وتأثيراً يفوق رجل الدين عند شريحة من المشاهدين بسبب ما يحظى من انتشار، فإنّ أي خطأ أو سطحيّة في الطرح الديني قد يؤدي إلى تضليل ونشر معلومات خاطئة تكون سببًا في انزلاق غيره.

من هنا تبرز الحاجة الملحّة إلى بيان الحدّ الضروري من المعرفة الدينيّة الصحيحة التي ينبغي على كلّ مثقّف مشهور الإلمام بها قبل الخوض في الحديث عن الدين، انطلاقًا من قاعدة فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون، وقياسً على منع غير المختص من ممارسة مهن حساسة كالطب والهندسة درءًا للمفسدة.

فالسؤال المركزي الذي يطرحه هذا البحث هو: ما الأساسيات التي يجب على المثقف المشهور معرفتها قبل التصدي للحديث في الشأن الديني، حتى يكون كلامه نافعاً؟

أهداف البحث

١- التنبيه إلى خطورة أن يتكلّم المشهور في الدين بغير علم، فيضرّ ويُضرّ.

٢- بيان الحدّ الأدنى من معرفة الدينيّة التي لا يجوز على المثقف جهلها.

٣- دعوة للمثقف المشهور لاستثمار تأثيره في الخير، بعد أن يتزوّد بالمعرفة الصحيحة.

منهج البحث

اعتمدت المنهج الاستدلالي والبلاغي، مدعومًا بالنصوص الشرعيّة وأقوال العلماء، والشواهد العلميّة والأدبيّة.

خطة البحث

بدأت بالمقدّمة وشرحث فيها أهمّية البحث والإشكاليّة والأهداف، والمنهجيّة التي سرت عليها، ثمّ انتقلت إلى صلب البحث فتناولت بيان الأصل الأول في الدين الذي لا بدّ لكلّ مثقف أن يعرفه قبل التصدر للكلام، وسعيت في الطرح إلى الربط بين الدليل الشرعي العلمي، مع التركيز على ما ينفع القارئ وينبهه، وأختم بجملة توصيات عمليّة، وأسأل الله أن يكون هذ البحث نافعاً لكلّ مثقّفٍ حريص على الخير لنفسه وللنّاس.

١ من الإلحاد إلى الإيمان

أبدأ ببحث قضيّة الإيمان، لأنّ الإيمان هو الأساس الأول الذي تُبنى عليه كلّ تعاليم الدين، فيجب أن يكون مبنيّاً على البصيرة والبرهان، بعيداً عن التقليد الأعمى، الذي يتحوّل مع الزمن إلى إيمان ضعيف، فيبدو صاحبه كأنّه لا يعرف: بماذا يؤمن؟ ولا لماذا؟ ولا إلى أين المصير؟ فيكون كحال القائل:

جئتُ لا أعلم من أين ولكنّي أتيتُ...

ولقد أبصرتُ قدامي طريقًا فمشيت...

وسأبقى ماشياً إن شئتُ هذا أم أبيت...

كيف جئت كيف أبصرتُ طريقي؟ لست أدري؟

إنّها قصيدة طويلة للشاعر اللبناني المشهور "إيليا أبو ماضي"[1] يتساءل من خلالها عن أصل الوجود وسرّ الحياة والمصير بعد الموت، اسئلة لطالما شغلَت الفكر البشري منذ القدم، ولا زالت مدار حوار بين البشر في كلّ زمان.

وقد أجاب الدين على هذه الأسئلة منذ بداية الخلق، ولكن لا يزال الفكر البشريّ كلّما ابتعد عن تعاليم الدين ودخل في غياهب الزمن، وخفيت عليه أخبار الرسل والأنبياء، أو وصلت إليه مشوّهة محرّفة، يعود ليحاول أن يثبر أغوار الغيب ليجد حلاً للغز الوجود، ويحاول أن يعرف من أين منشؤه؟ وإلى أين المصير؟

وقد طرح الفكر البشري مثل هذه الأسئلة على لسان الفلاسفة والأدباء والشعراء عبر الزمن، فما وصلوا إلّا إلى مزيد من الوهم الحائر.

ومثل ذلك ما قاله عمر الخيّام:

أحسّ في نفسي دبيب الفناء ولم أذُق في العيش إلّا الشقاء

يا حسرتي إن حان حيني ولم يتح لفكري حلّ لغز القضاء[2]

فلتعلم أيها المثقف المشهور، أنّه لا سبيل لحلّ تلك الأسئلة إلّا بالرجوع إلى خالق الوجود، وقد أثبت الفلاسفة عبر التاريخ أنّه لا بدّ لهذا الكون من خالق، خلقه فأبدعه ونظّمه، وأطلقوا عليه اسم "واجب الوجود"[3].

"الفلاسفة القدامى أسموا الله: الصانع الأول والعقل الأول، وواجب الوجود، وسبب الأسباب،...، كما أنّ للعلماء المحدثين تصوّرات في الألوهيّة التبس فيها الحقّ بالباطل كما سنرى، وعلّة هذا اللبس، أن هداية السماء لم تصحب العقل في سيره، ومن ثمّ أقرّ العقل الذكيّ، بالمبدأ الواجب، وأخطأ في التفاصيل"[4]

فالعقل الذكي والباحث المتحرّر من العصبيات، لا بدّ أن يصل إلى حقيقة أنّ لهذا الكون خالقًا واجبًا وجوده، ولكن هذا العقل منفردًا لا يستطيع أن يعرف ماذا يريد الله من خلقه، أو إلى أي مصيرٍ يأخذهم، فلذلك اقتضت الضرورة المنطقيّة أن يبحث هذا العقل عن خبر من عند خالق هذا الكون الذي قد اقرّ عقله بوجوده، ليعرف منه، لماذا وإلى اين؟ وإن لم يبحث عن جواب من الخالق، سيبقى هذا المثقّف يقول: " لست أدري ولماذا لست أدري لست أدري".

1 أيليا أبو ماضي (1889- 1957م) شاعر لبناني، من أبرز الشعراء، عضو مؤسس في الرابطة القلميّة، هاجر إلى مصر ومن ثمّ إلى نيويورك.

2 عمر الخيام، ولد في مدينة نيسابور من خرسان ما بين 1038(-1123م).

3 انظر: تاريخ الفلسفة، إيلي صعب.

4 عقيدة المسلم، محمّد الغزالي، دار القلم، دمشق، ط6، 1987م، ص 19.

فلتعلم أيّها المثقف، أنّ الله الذي خلقك، وأوجدك من عدم، في أي صورة ما شاء ركّبك، لم يتركك في هذه الدنيا حائراً تائهاً تبحث عن الحقيقة منفردًا، فاقتضت حكمته تعالى، أن يرسل لك من يُخبرك أنّه هو الذي خلقك، ولماذا خلقك، وإلى أين مصيرك، فمنذ خلق الله آدم أنزل معه الهدى، وقال له: من يتبع هدايا لا يضلّ ولا يشقى، وأنت أيها المثقف لماذا تتعب نفسك فتبحث عن الجواب في مكان آخر؟

فهل من المنطق إذا أردت دواءً لقلبك، أن تذهب إلى بائع قطع السيّارات، أم تذهب إلى الصيدلي؟ تريد أن تعرف من أين جئت؟ اسأل من أوجدك، لماذا أوجدك؟ تعرّف على الصانع واسأله عن المصنوع، هذا ما يفرضه العقل السليم، أن تسأل عن الشيء من كان به خبيرًا، وإن لم تفعل ذلك فستبقى لا تدري ولماذا لا تدري؟ لأنّك لم تبحث عمّن يدري.

والأعجب من ذلك يا صديقي المثقف المشهور، إنّك تعرف أنّ الخالق قد أرسل من يبحث عنك جاهداً ليخبرك، من أين أتيت ولماذا اتيت وإلى أين المصير، ولكنّك ترفض أن تسمعه، ولا تكلّف نفسك ولو من باب الفضول، أن تستمع برهة لما يقول، ما يدريك؟ لعلّك تجد عنده الشفاء لما يُتعبك من زمن طويل؟ أيّها المثقف مهلاً فكّر قليلاً بما أقول، اعط نفسك فرصة، وحاول أن تسمع وفكّر بما تسمع قبل أن ترفض، فلعله يكون شفاء لما في الصدور!

هناك من أنار لك الطريق، ووضع لك كلّ العلامات التي ترشدك إلى برّ الأمان، ثمّ ترفض تلك الإشارات والبراهين، وتريد أن تسلك طريقاً آخراً مظلماً مليء بالمخاطر والمنزلقات، وتقول أنا أبحث عن برّ الأمان منفرداً، أليس هذا عجب عجاب أن ترى تائهًا بحر الظلمات، يرفض طوق النجاة!

يقول أبو حامد الغزالي:

علم المحجّة واضحٌ لمريده وأرى القلوب عن المحجّة في عمى

فكم عجـبت من هالك ونـجاته موجودة وكم عجبت لـمن نجا.

فأنت تريد أن تبحث عن سرّ الحياة والمآل، والذي خلق الحياة قد أرسل لك من يخبرك بذلك، فهل من الحكمة أن تعرض عنه قبل أن تبحث في مقاله لتتأكد من صدقه أو كذبه، هل من الحكمة أن تترك النور وتمشي في الظلام.

أيها الصديق، المثقف، المشهور، إن لكلّ عملٍ غايةً وهدفًا ومنطلقًا، فالمنطلق الفكري هو الذي يحدّد الغاية والهدف، وهو الذي يحدّد الوسائل التي يستطيع الإنسان سلوكها لتحديد ذلك الهدف.

أحببت أن أبدأ بحثي هذا بطريقة الإيمان عن طريق الرسل، وذلك لأنّ الله تعالى قد جعل بهم السبيل الأقوم للوصول إلى الإيمان اليقيني الذي لا ريب فيه، وقد جعل بهم الحجّة الدامغة على المنكرين، وجعل إنكار الرسل السبب الموجب للعذاب في يوم الدين، حيث قال تعالى:

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ١٥ ﴾ الإسراء [15]

قَالَ تَعَالَى: ﴿ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ ﴾ النساء [165]

واسمحوا لي أن استشهد بالآيات القرآنيّة، فقد أثبتّ أحقيّة الاستدلال بها، وأفردت لذلك بحثاً تحت عنوان القرآن معجزة كبرى خالدّة[5].

ورغم أنّ الله تعالى قد أودع في الإنسان العقل والفطرة، بحيث يمكنه بعقله وفطرته أن يصل إلى الإيمان بخالقه العظيم، خالق هذا الكون وما فيه، إلّا أنّه سبحانه قد جعل إرسال الرسل هو الحجّة الموجبة للعقوبة.

ونحنا إذا بحثنا في أعماق التاريخ لا نجد حقبة زنيّة تخلو من أتباع الرسل. وقد قال المؤرّخ الروماني بلوتارك[6]: "من الممكن أن توجد مدن بلا أسوار، وبلا ثروة، وبلا آداب، وبلا مسارح؛ ولكن لم ير إنسان قط مدينة بلا معبد، أو لا تُمارس فيها الصلاة. فالدين طابع الإنسان، وإحدى الضرورات الإنسانيّة، وتقرّر العلوم الحديثة والدّراسات الأنتربولوجيّة أنّ الدين أسبق من الفلسفة، وأنّه هو الذي أعطى البشريّة تلك الحصيلة

5 انظر: هذا البحث ص10-13.

6 بلوتارك (46م -120م)، كاتب ومؤرخ إغريقي وراوي تراجم، اشتُهر نتيجةً لمؤلّفه الحياة المتوازية لليونانيين والرومانيين. نقلاً عن الموسوعة الشاملة المرقّمة آلياً.

الضخمة من الفكر والعلم والمفاهيم والقيم، التي ما تزال تتداولها حتى الآن، وأنّه هو الذي زوّد العلم بمجموعة من الصور، يختار من بينها تمثّلاً أولياً للكون، وزوّد الفلسفة بمعنى اللامتناهي والعدل والظلم والحقّ والخير والشرّ والخالد والفاني، وهي قيم لا تزال تحتفظ حتى الآن بمفهومها الأول."[7].

وهذا ما أكّده الله تعالى في كتابه العظيم، حيث قال تعالى:

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ فاطر [24]

وهذا الكمّ الهائل من أتباع الرسل الذين لم تخلو منهم حقبة زمنيّة، هو بحد ذاته يسمى دليل تواتر على وجود هؤلاء الرسل، ورغم ما نراه من اختلاف بين أتباعهم، ولهذه الإختلافات أسباب عديدة، أهمها: الفترة الزمنيّة التي يعيشها الناس بعد رسلهم فتختلط تعاليم الرسل بأفكار الأتباع، وهذا ما يؤدي عبر الزمن إلى ما نراه من تباين بين أتباع الرسل!

ولذلك كانت الحكمة الإلهيّة، كلّما بعد النّاس عن تعاليم الرسل أن يبعث الله رسولاً يجدّد الدعوة إلى الحق ويزيل ما علق في أذهان النّاس من تحريف.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ الأعراف [35، 36]

ولطالما فضّلت أن أبدأ بهذا البيان، لما لمسته من القبول عند الناس، لاشتماله على السهولة والترابط والتسلسل في الإستدلال، فهو يزيد إيمان المؤمنين، ويحفّز الباحثين عن الحقّ ويفتح لهم طريق إلى الإيمان الصحيح، وكذلك يقيم الحجّة على المعاندين، ويكشف إصرارهم على العناد رغم وضوح الطريق وكثرة البراهين التي تزيل الشكوك والريب وتوصل صاحبها إلى اليقين.

فالله تعالى رغم أنّه قد زوّد الإنسان بالعقل والقلب المفطور على الإيمان، إلّا أنّه تعالى لم يترك البشر في هذه الدنيا تائهين يبحثون عن الحقيقة منفردين، بلّ أرسل إليهم رسلًا مبشرين ومنذرين، وكلّ رسولٍ أيّده بمعجزات دليلاً على صدقه، وحجّة دامغة للمعاندين، وفي ما يلي بيان مختصر عن أهم الرسل:

٢ وجود الرسل ضرورة عقليّة

يذهب بعض المثقفين المشهورين في وسائل الإعلام إلى القول: "أنا مؤمن بالله، ولكنّني لست مسلماً ولا مسيحياً ولا أؤمن بأيّ دين آخر، لأنّ الأديان تفرّق، لذلك أنا أؤمن بالله الواحد فقط".

عزيزي المثقف المشهور، هذا القول لا يستقيم بالمنطق العقلي ولا الفطري، لا تستطيع أن تكون مؤمناً بالله إيماناً كاملاً مقبولاً إذا أنكرت رسله، أنت تستطيع أن تتعرّف على الله تعالى بعقلك، ولكن لا تستطيع أن تعرف ماذا يريد الله منك إلّا من خلال رسله، ومن عرف الله بعقله، يصبح بشوق شديد إلى مزيدٍ من المعرفة عن الله وإرادته وما يرضيه، وهذا الإيمان يدفعه إلى أن يبذل جهداً في التعرّف على رسله، لا أن يعرض عنهم ثمّ يدّعي أنّه يؤمن بالله على طريقته الخاصّة.

7نقلاً عن أنور الجندي، دراسات إسلامية معاصرة، ج6، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، ط 1، 1982 م، ص 173.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ١٥١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٥٢ ﴾ النساء [150-152]

أيّها الصديق المثقّف لا تستطيع أن تكون مؤمناً بالله على طريقتك الخاصّة، بل يجب أن تؤمن بالله كما أخبرك، وكما يريد منك أن تكون مؤمناً، أنت تؤمن بالله الواحد قبل أن تصل إليك دعوة الرسل، ولكن بعد أن تصل إليك دعوة الرسل، عليك أن تتأكد من صدق دعوتهم بالوسائل العقليّة والعلميّة، فإذا تأكّدت فوجب عليك أن تتبع الرسول بما يقول، فنحن المسلمين كما شرحنا سابقاً قد ثبت لدينا بأنّ آخر الرسل كان محمداً وآخر الكتب المنزّلة من عند الله تعالى هو القرآن العظيم، فوجب علينا أن نتبع ما أنزل الله ولا نعصيه.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ٣٦ ﴾ الأحزاب [36]

أخي المثقّف المشهور، إيّاك أن تنس أنّ الإيمان الحقّ يفرض عليك طاعة الله تعالى كما أمر في قرآنه.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ٢٠ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ٢١ ﴾ الأنفال [20، 21]

فهذا خطاب واضح صريح من الله تعالى للمؤمنين، يا أيها الذين آمنوا، إن كنتم مؤمنين حقاً، عليكم أن تطيعوا الله ورسله، طاعة كاملة، ومن يعرض عن ذلك فله عذاب شديد، ولتعلموا أن الله يدعوكم لما يحيكم، أي لما فيه خير لكم في الدنيا والآخرة.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٤ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٥ ﴾ الأنفال [24-25]

ونحن نؤمن برسل الله كافّة، ولا نفرّق بين أحدٍ من رسله.

٣ الإعجاز القرآني دليل الإيمان الأكبر

وإذا قيل: كيف يؤمن في زمانا هذا من لم ير الأنبياء ولم ير المعجزات، نقول للمثقف المشهور ولغيره: إن الله الحكيم العليم عندما جعل محمّداً ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، فلن يأتي من بعده رسول يهتدي البشر به، لذلك أيّده الله بأعظم المعجزات، ويؤكّد ذلك الرسول ﷺ بقوله: "ما من الأنبياء من نبيّ إلّا قد أُعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنّما كان الذي أوتيت وحياً أوحاه الله إليّ. فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة"[8].

فكما كان الرسل يتحدّون أقوامهم بالمعجزات التي لا يستطيع أحد من البشر أن يأتي بمثلها لأنها من عند الله، كذلك فإنّ الله يتحدّى بهذا القرآن البشريّة جمعاء **قال تعالى:**

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾[9].

فكلّ آية من آيات القرآن تتحدى البشريّة إلى قيام الساعة، قال تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾[10].

وفي هذا تتجلّى حكمة الله البالغة المحيطة بالزمان والمكان، فإنّه سبحانه لمّا جعل محمداً ﷺ، خاتم الأنبياء والمرسلين، فلن يبعث بعده رسولاً يهتدي الناس به، وبعلمه تعالى الأزلي، أنّه سيأتي هذا الزمن الذي تتطور فيه الوسائل، حتّى يتحوّل العالم إلى قرية كونيّة واحدة فيسهل تبليغ الرسالة الخاتمة لأنحاء العالم كافّة، ولذلك أنزل على محمّدﷺ المعجزة القرآنيّة الكبرى التي لا يحدها الزمان ولا المكان، وجعلها جامعةً لأصول الهداية التي وردت في رسالت الأنبياء السابقين وهي حجّة على العاملمين باقية إلى يوم الدين.

وقد أشار الله تعالى إلى ذلك بقوله: ﴿ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾[11].

فهذا القرآن نذيرٌ خالدٌ وحجّة بالغة على كلّ من بلغته دعوته في سالف الدهر وحاضره ومستقبله، وهو السبيل الأقوم لهدايتهم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ ﴾[12].

وقد أودع الله فيه آيات بيّنات تتجدد وجوه إعجازها بتجد الأزمان، فلو سئل أيّ مسلم عن أكبر معجزة أيّد الله بها نبيّه محمدﷺ؛ لأجاب أنّها القرآن العظيم.

---

8 - صحيح مسلم، الإمام أبي الحسن مسلم بن الحجّاج بن مسلم القشيري النيسبوري، تـ **261** هـ، دار ابن رجب، المنصورة، ط**1**، **2002**م، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمّد إلى جميع النّاس ونسخ الملل بملته، ص **93**، رقم: **152**.

9 - الإسراء: 88.

10 - البقرة: 23 - 24.

11 - الأنعام: 19.

12 - الإسراء: 9.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾ ﴾ سورة ص [88-86]

والله تعالى يدعو البشر إلى التفكّر في آيات القرآن ليتبيّن لهم أنّه الحقّ، قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾[13].

وأكّد تعالى أنّ من يطّلع على آيات القرآن بعلمٍ وبصيرة، متجرّدًا من العصبيّة والعداوة المسبقة، لا بدّ أن يعلم أنّ هذا القرآن هو كلام الله، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، قال تعالى: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ ﴾[14].

عزيزي المثقّف المشهور، يؤكّد الله تعالى في هذه الآيات، أنّ من يسعى لمعرفة الحقّ، وهو من ذوي الثقافة والعلم، إذا اطّلع بعقله متجرّداً من عصبيّته المسبقة، على آيات هذا الكتاب بثقافته العلميّة النيّرة، فلا بدّ أن يعلم علم اليقين أنّ هذا الكتاب هو وحيٌ من الله الخالق، إذ لا يمكن أن يكون من صنع بشر، وخاصة في ذلك الزمان الذي نزل فيه القرآن، وفي تلك البيئة.

ومن شواهد ذلك قصّة أحد علماء الغرب واسمه: (كيث مور)[15] فبعد أن حضر مؤتمرًا حول الإعجاز العلمي في القرآن الذي عقد في الرياض، وبعد حوار طويل مع رئيس هيئة الإعجاز العلمي في القرآن الشيخ عبد المجيد الزنداني، قال بما معناه: لقد اطلعت على القرآن - كتاب المسلمين- فوجدت فيه من الحقائق العلميّة ما لا يمكن لعقل بشري أن يأتي بها، وخاصّةً في الزمن الذي نزل فيه القرآن، منذ ألف وأربعمئة عام، وهذه المعلومات لم نصل إليها إلّا في القرن العشرين، وبوسائل علميّة متطورة، وهذه الحقائق جعلتني أتأكد بيقين لا شكّ فيه أن هذا القرآن لا يمكن أن يكون من صنع بشر، ولا بدّ أن يكون من عند خالق البشر، فآمنت بذلك، وأنا متأكّد أنّ محمّد وعيسى من مدرسة واحدة[16].

وقد وصل بفطرته السليمة إلى ما أقرّته الآية الكريمة: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾[17].

وهناك عدد كبير من كبار علماء الغرب وفي مختلف التخصّصات، قد وصلوا لما وصل إليه هذا العالم، ومنهم البروفاسير موريس بوكي[18]، الطبيب الفرنسي المشهور، الذي ألّف كتاباً أسماه: "التوراة والإنجيل والقرآن والعلم" ويشرح في كتابه، أنّه يؤمن بأن هذه الكتب منزلة من عند الله، ولكن التوراة والإنجيل قد دخلهما كلمات من صنع البشر بسبب الفترة الزمنيّة الكبيرة، كذلك بسبب ضياع النسخ الأصليّة، والترجمة وإعادة

13 - فصلت: 53.

14 - سبأ: 6.

15 - البروفيسور كيث مور، من أكبر علماء التشريح والأجنّة في العالم، تسلّم الجائزة الأكثر بروزاً في حقل علم التشريح في كندا، عام 1984م، وترأس العديد من الجمعيات الدولية، مثل الجمعية الكندية والأمريكية لاختصاصي التشريح، ومجلس اتحاد العلوم الحيوية، كما انتخب عضواً في الجمعية الطبية الملكية بكندا، والأكاديمية الدولية لعلوم الخلايا، والاتحاد الأمريكي لأطباء التشريح، وهو رئيس هذا القسم في جامعة تورنتو بكندا، ألّف كتاباً يعد من أهم المراجع الطبيّة في هذا الاختصاص، وقد أعلن إسلامه في المؤتمر العلمي للإعجاز القرآني الذي عقد في القاهرة 1986م، انظر، كتاب محمد في أعينهم، يامن الحجة، دار القلم، دمشق، ط 1، 2011م، ص196.

16 - أنظر: الإنسان النامي: علم الأجنّة الموجه إكلينيكيًا مع الإضافات الإسلاميّة، دار ابن حزم، جدة، ط3، 1983م، فصل الإضافات الإسلاميّة. و كتاب: محمّد في أعينهم، م ن، ص 197.

17 - البقرة: 285.

18 - موريس بوكاي: هوالطبيب والعالم الفرنسي المعروف، (1920-1998م) نشأ على المسيحيّة الكثوليكيّة، وبعد أن أصبح طبيباً باطنياً مشهوراً، درس في جامعة السوربون اللغة العربيّة دراسة نظاميّة، وكانت معرفته بالسيدة جيهان السادات، إذ عالج بنجاح قيباً لها في باريس، وقد قدّمه الرئيس السادات ليكون ضمن الفريق الطبي للملك فيصل عاهل السعودية سنة 1975م، درس الكتاب التوراة والإنجيل ثمّ درس في القرآن، وألّف كتابه المشهور، (التوراة والإنحيل والقرآن والعلم). أنظر: محمّد في أعينهم، يامن الحجة، ص 237.

الترجمة، وذلك يظهر في النصوص التي تتناقض مع الحقائق العلميّة الثابتة، أمّا القرآن فنصوصه سابقة للحقائق العلميّة، آياته واضحة يتجلى إعجازها في كل عصر، وهذا يؤكّد أنّ القرآن لا يمكن أن يكون من صنع بشر[19].

وهذا الباب يطول الكلام فيه تحت عنوان الإعجاز العلمي في القرآن[20].

وهكذا يبقى وجه التحدّي والإعجاز ظاهراً في آيات القرآن إلى يوم القيامة، فكما تحدّى القرآن أهل مكة وهم أهل البلاغة فعجزوا، كذلك فإنّ الله تعالى يتحدى

أهل كل عصر بما برعوا فيه، فجعل في آيات القرآن إشارات تظهر أنّ القرآن قد سبق العلم الحديث بتقرير حقائق كونيّ ما كان العقل البشري ليعرفها في زمن نزول القرآن.

وكذلك نرى كثيراً من الآيات التي تتحدى البشريّة جمعاء في كلّ زمان ومكان، مثل هذه الآية: ﴿ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾[21].

في هذه الآية تحدٍ واضح لكلّ البشر، يقول لهم إن كنتم تظنّون أنّكم غير مبعوثين ليوم الحساب، أرجعوا هذه الروح إن كنتم صادقين، فهذا الإنسان الئي يملأ الأرض قوةً وحيويةً، فإذا خرجت روحه وتركته جثّة هامدة، من يستطيع أن يرجعها ثانية.

إنّ الطبيب له علمٌ يدلّ به ما دام في أجل الإنسان تأخير

حتى إذا ما انقضت أيام مهلته حار الطبيب وخانته العقاقير[22].

أن تعرف أنّ الله هو الذي خلق الموت والحياة، فلو اجتمعت الإنس والجنّ على أن يرجعوا هذه الروح التي بين جنبيك أيّها الإنسان هل يقدرون؟ كلّا وربي ليسوا بقادرين، ولقد زاد الله تعالى درجة التحدّي عندما تحدّاهم لا بخلق إنسان بل بخلق ذبابة حقيرة، حيث قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [23].

ونريد من هذا الشرح، أن نؤكّد ما قلناه في صفحات سابقة: إنّ العقل البشري عبر التاريخ قد أقرّ بالضرورة بوجود خالق أول لهذا الكون المنظّم بنظامٍ دقيق، ولكنّ هذه العقول اختلفت فيما يريد الخالق تعالى من خلقه، فتعدّدت الفلسفات واختلفت في ذلك، وهنا برزت الحاجة إلى رسل من الله ليبينوا لهم ماذا أراد منهم وبذلك يحسم الخلاف، فما من أمّة إلاّ خلا فيها نذير، وكل رسول أيده الله بمعجزات دليل على صدقه.

وآخر الرسل محمد ﷺ قد **أيّده الله تعالى** بأعظم المعجزات المتمثلة **بالقرآن العظيم**، وجعلها باقية إلى يوم القيامة كما تقدم أثبات ذلك، ولمن أراد التوسّع في ذلك فهناك عدد كبير من الكتب تشرح وتثبت هذه الحقيقة بحيث لا تترك أيّ مجالٍ لشكٍّ أو ريبٍ[24].

---

19 - أنظر: التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، موريس بوكي، ترجمة المفتي حسن خالد، المكتب الإسلامي، ط3، 1990م.

20 - يامن الحجة، محمد في أعينهم، دار القلم، دمشق، ط **1**، **2011**م، ص**196**. قصة الإسلام، //www.islamstory.com

21 - الواقعة: 86-87.

22 - ديوان العرب موسعة الشعر العربي، تطبيق إلالكتراني، يضم أكثر من **79000** قصيدة لأكثر من **500** شاعر، وقد نسب البيتين إلى أمير المؤمنين هارون الرشيد.

23 - الحج: 73-74.

24 - أنظر: محمد راتب النابلسي، موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، دار المكتبي للطباعة والنشر، دمشق، ط**2**، **2005**م.

وعندما يصل الباحث إلى الإيمان الذي لا ريب فيه، هذا يقتضي أن يؤمن بأنّ هذا القرآن كلام الله الذي لا يأتيه الباطل، وكلّ ما فيه حجّة بالغة، ومن أعرض عنها ظلم نفسه، قال تعالى**:** ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾[25].

فبعد أن تعرف أيّها المثقّف المشهور أنّ هذا القرآن كلام الله الخالق للبشر جميعاً، فإن آمنت بذلك، فعليك إذا سمعت آية من آيات القرآن تشرح مسألة من عالم الغيب أو أمراً في عالم الشهادة، أن تقول**:** سمعنا وأطعنا، فلا يصحّ في حكم العقل السليم أن يكون لك رأي مخالف لما أقرّه القرآن، فتقول أنا أظنّ كذا وكذا وتخالف ما أثبته القرآن**.**

- محمد متولي الشعراوي، معجزة القرآن، المختار الإسلامي، القاهرة، **1989**م**.**
- وحيد الدين خان، الإسلام يتحدى، ترجمة**:** ظافر الدين خان، دار النفائس، بيروت ط**1**، **1981**م**.**
- محمد طماشي، عظماء ومفكرون يعتنقون الإسلام، دار المحبة دمشق، بدون تاريخ**.**

25 - السجدة: 22.

٤ المخلوق والخالق

العقل الإنساني في الفترات التي بعُدت عن زمن الرسل، أو في البلاد التي خفتت فيها تعاليم الرسل لأسباب عديدة، قد وجد نفسه مضطّراً أن يجيب على الأسئلة الكثيرة التي تفرضها فطرته الباحثة عن أصل الوجود، عن المنشأ والمصير، هذه الأسئلة الملحّة التي تتردد إلى العقل الإنساني في كلّ زمان ومكان، ففي تلك الأماكن التي خفت فيها صوت الوحي، وبعُدت قسراً عن تعاليم الرسل، أو وصلت إليهم تعاليم الرسل بشكلٍ مشوه، كانوا يطلقون العنان لعقولهم لتبحث عن الحقيقة وتجد الإجابات على تلك الأسئلة الملحّة، فقد توصّل العقل البشري إلى ضرورة وجود خالق لهذا الكون، وقد أطلقوا عليه اسم واجب الوجود.

فلو دخلنا إلى غرفة وجدنا فيها لوحاً مكتوب عليه بخط واضح:

الإنسان كائنٌ حيّ مزود بعقل وبصيرة يستطيع أن يميّز بين الخير والشر والحق والباطل والظلم والعدل بعقله.

هل يمكن لأحد أن يصدّق أن عاصفة هوائيّة ضربت الغرفة وتطيار الغبار حتى كُتبت على اللوح هذه الجملة المؤلّفة من أحرف اللغة العربيّة، بهذا البيان الرائع، كلّا لا أحد يصدّق ذلك، فكلّ العاقلين يؤكّدون وجود إنسان عاقل يملك القدرة والمعرفة كتب هذه العبارة المفيدة.

فهذا الكون المنظّم بنظامٍ دقيق وتلك المخلوقات الرائعة المنتشرة في أرجاء هذا الكون وهذا الإنسان العاقل الموجود بأحسن تقويم هل يمكن أن يوجد بغير خالق خلقه؟ أم خلقوا من غير شيءٍ أم هم الخالقون...

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ٥٦ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧﴾

غافر [56، 57]

وقضيّة الخلق هذه من أهمّ القضايا التي استعملها القرآن[26] للدلالة على عظمة الله الخلّاق لكلّ شيْء، فنحن نجد في هذا الكون الفسيح عدداً هائلاً من المخلوقات وكلّ مخلوق فيه من آثار الإتقان وعظيم اللطف عجبًا عُجابًا لو ترى عيناك، وكل مخلوق هو آية معجزة تشهد على عظمة الخالق، فمن ذا الذي يستطيع أن يخلق حشرة صغيرة من مخلوقات الله.

الواقع العلمي والمنطق والعقل كلهاّ متفقة أنه لا يمكن أن يكون لهذه المخلوقات إلّا خالق واحد هو الله **(**جلّ جلاله**)**، فهو الذي أخبرنا عبر رسله الكُثُر من آدم أوّل البشر إلى محمّد خاتم الأنبياء، أنّه هو الله الخالق.

قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ قُلِ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَٱتَّخَذۡتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعٗا وَلَا ضَرّٗاۚ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ أَمۡ جَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلۡقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلۡخَلۡقُ عَلَيۡهِمۡۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّٰرُ ١٦﴾ الرعد [16]

فلم يدّعِ أحدٌ غير الله أنّه خالق هذا الكون، والله تعالى يتحدّى أن يزعم أحدٌ أنّه يخلق كخلقه، وينفي ذلك نفياً باتاً، وإن كنتم تزعمون أنّه هناك خالق غير الله فأرونا ماذا خلق الذين من دونه إن كنتم صادقين؟ أفنترك كلّ تلك البيانات والأدلّة والبراهين ونتبع ظنوناً وأوهام حائرة.

26 وقد أفردت في هذا البحث مبحثاً كاملاً، أشرح فيه بالأدلة والبراهين العلميّة حقيقة أنّ القرآن هو المعجزة الكبرى والباقية، الذي أنزله الله على خاتم رسله محمّد ﷺ وجعله معجزة باهرة تحدى به الإنس والجن أجمعين، وجعله السبيل لهداية البشر إلى يوم الدين. أنظر مبحث: (القرآن المعجزة الكبرى)

قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبّٗا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيّٗا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٢٢ قُلۡ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۖ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ٢٣ ﴾ الملك [22، 23]

قَالَ تَعَالَى: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٖ ١٠ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ١١ ﴾ لقمان [10، 11]

هكذا فقواعد علم المنطق، والعقل السليم، تعترف بخالق واحد للوجود، وترفض أن يكون غير ذلك، إذ لو كان في الوجود خالقٌ غير الله لنازعه الأمر، ولو كان هناك أكثر من خالق لتنازعوا بينهم وابتغوا إلى ذي العرش سبيلا.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُل لَّوۡ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٞ كَمَا يَقُولُونَ إِذٗا لَّٱبۡتَغَوۡاْ إِلَىٰ ذِي ٱلۡعَرۡشِ سَبِيلٗا ٤٢ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوّٗا كَبِيرٗا ٤٣ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ٤٤ ﴾الإسراء [42-44] .

فالله هو الخالق الأحد، لم يتركنا في ظلمات الشك، أو في متاهات البحث الحائر، بلّ قد خلق لنا العقل والبصيرة وأرسل لنا الرسل وأيّدهم بالأدلة والبراهين التي تثبت صدقهم، فبينوا لنا الحق وكشفوا عنا ظلمات الجهل والضلال، لذلك كانت طريقة الرسل هي الطريقة الأفضل للوصول إلى حقيقة الإيمان الذي لا ريب فيه.

وقد بيّن لنا الله تعالى في قرآنه أنّه يتحدى من يزعمون له شركاء أن يخلقوا كخلقه، وأظهر ذلك في آيات عديدة في قرآنه العظيم.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ١١ ﴾ لقمان [11]

وحقيقة الخلق الكبرى هي: الإيجاد من العدم، الله تعالى يخلق كائنات يهبها الحياة، ويزوّدها بإرادة حرّة وبوسائل تعرف من خلالها ما يضرّها فتجتنبه وتعرف ما ينفعها فتحرص عليه، تذهب وتعود، تتكاثر وتلد، وتحافظ على صغارها حتى يستغنوا عنها وتكتمل دورة حياتها، هذا خلق الله، خلق كائنات حيّة في البرّ وفي البحر تكاد لا تحصى، وهذه الطريقة في الخلق تنطبق على كل الكائنات الحيّة من أصغرها، والتي لا ترى بالعين المجرّدة، إلى أعظمها مثل الحوت الأزرق الذي يبلغ طوله حولي أربعين متر، ويبلغ وزنه حوالي **180** طن، ويخلق ما لا تعلمون.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ٥٠ ﴾ طه [50]

وقد جعل الله قضيّة الخلق من المعجزات التي تحدّى بها خلقه أجمعين، وقد أجرى ذلك على يد عيسى بن مريم وجعلها معجزة تحدى بها بني إسرائيل حيث صنع لهم طائراً من طين فنفخ فيه فحوله الله تعالى إلى طائرٍ حقيقي يطير في السماء.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٤٩ ﴾ آل عمران [49]

فقضيّة الخلق هذه قضيّة عظيمة لا يقدر عليها إلّا الله تعالى، وكلّ مخلوق من هذه الكائنات هو آية كبرى فمن يدقق النظر في هذه المخلوقات يرى العجب العجاب من دقّة التفاصيل وعظيم التعقيدات في تفاصيل تلك المخلوقات.

لله في الآفاق آيات لعلّ أقلّها هو ما إليه هداك

ولعلّ ما النفس من آياته عجبٌ عجابٌ لو ترى عيناك

والكون مشحون بأسرار إذا حاولت تفسيراً لها أعياك[27].

ثمّ إنّ الله تعالى يتحدى الإنس والجن الذين هم مدار التكليف، تحدياً سافراً واضحاً.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ الحج [73، 74]

وهذا تحدٍ إلهي ظاهر وواضح، أيّها الناس أنتم ومن تدعون من دون الله من إنس وجن وأي شيٍ آخر لن تستطيعوا أن تخلقوا ذباباً ولو اجتمعتم له.

هذه الذبابة التي تحتقرونها، طولها لا يتجاوز **7** ملم تعيش شهراً واحداً، ولكنّها تمتلك أجهزة بالغة الدقّة وتقنيات عجيبة في تصرفاتها، وتضع حولي **200** بيضة كلّ ستة أيام ، تتحول البيضة إلى ذبابة ناضجة خلال خلال بضعة أيام، وهكذا تعود دورّة حياتها من جديد، وإذا أخذت الذبابة جزءًا من الطعام لا يستطيع الإنس والجن أن يسترجعوه منها، ذلك بأنّ لها خرطوم تفرز من خلاله أنزيمات يتحول الطعام من خلاله إلى أشياء أخرى، وذلك قوله تعالى:

وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ الحج **[73-74]**

وقد كشف المجهر الإلكتراني أنّ للذبابة عينين مركبتين، في كلّ واحدة منهما نحو أربعة آلاف عيّنة بصريّة، ترى بها في كلّ الاتجهات.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ * إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ البقرة [26]

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ ﴾ طه [50]

والله تعالى يضرب هذه الأمثال ليدرك النّاس عظم قدرته وجلال قدره من خلال تلك المخلوقات الكثير، والدقيقة في تكوينها، والمتقنة في صورها، صنع الله الذي أتقن كلّ شيء صنعه، فدقّة المخلوقات تدلّ على أنّها صنع اللطيف الخبير.

27 - ديوان الإمام الشافعي، تـ محمد عفيف الزعبي، دار الجيل، بيروت ، ط1، 1973م، ص 88.

فيا عجباً كيف يعصى الإله أم كيف يجحده الجاحد

وفي كلّ شيءٍ لـه آيـة تـدلّ علـى أنّـه واحـد[28]

قال تعالى:

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَا وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ۝١٠ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾ لقمان [10، 11]

أيات الله مبثوثة في كونه الفسيح تشهد بعظمة خالقها، وكمال قدرته، ولطيف صنعه واتقانه، وتمام صفاته.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَفِي خَلۡقِكُمۡ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ۝٤ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝٥ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ۝٦ وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ۝٧ يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ۝٨ ﴾ **الجاثية [4-8]**

٥ النظم الإسلاميّة متكاملة مع المقررات العلميّة

اعلم يا صديقي المثقّف المشهور، أنّ الشريعة الإسلامية ليست ضد العلوم الحديثة، ولا بدّ للعلم الحديث المبنيّ على قوانين التجربة الصحيحة، أن يتلاقى مع تعاليمها الثابتة، "يمتاز العصر الحديث بأنّه تخلّص من الطرق العقيمة التي سارت عليها الفلسفات القديمة في فهم الإنسان لطبيعة وجوده، غايته من الحياة.

وإنّه اعتمد على أسلوب علميّ رائعٍ اقترب به من الواقع، وابتعد به عن الحدس.

ومن هنا نستطيع القول دون مخاطرة: أنّ هذه الدراسات تقرّب النّاس من الدين، لأنّها تقرّبهم من الفطرة"[29].

فعندما تبتعد الدراسات العلميّة عن الأوهام ويقتصر البحث على الحقائق ومراقبة النتائج بأسلوب علميّ متجرّد نجدها تتلاقى مع ما جاء في الدين الصحيح الخالي من تدخّلات البشر وتأويلاتهم الخاطئة، التي قد تكون عن حسن نيّة أو عن سوء نيّة، حيث تترك أثرها السلبي على الدين.

وينصح الشيخ الغزالي بالمزج بين الحقائق العلميّة والتوجيهات الدينيّة الصحيحة لكي نصل بالإنسانيّة عامّة الى بر الأمان حيث يقول: "هذا المزج جليل الفائدة لأنّه يتيح لعلماء الدين اطّلاعاً واسعاً على طبيعة الإنسان المجرّدة، وما حاجاته الحقيقيّة، وهو في نفس الوقت يُري العلماء المدنيين الأشفية التي وضعها الله لذهاب العلل، والوسائل العلميّة لارتقاء البشر، وزكاة النفوس وأحوالهم"[30].

ونحن في العصر الحديث نجد الحقائق العلميّة الثابتة تتوافق مع ما جاء به الدين الصحيح، ونجد المجتمعات البشريّة تتوافق بعد تجارب مخفقة أحياناً وناجحة في أحيانٍ أخرى، نجدّها تتجه الى توافقٍ مع ما أمر به الدين، ولو لم تعرف ذلك، وهذا يدلّ على أنّ الحق لا يتعدد، ويصل اليه الإنسان عن طريق البحث العلميّ المتجرّد عن العصبيات والموانع، فيتلاقى بذلك مع ما جاء به الوحي من الله الخالق.

"جرت سنّة الله في أنبيائه جميعاً أن يؤيّدهم بالمعجزات الواضحة، وأن يسوق بين أيديهم من الخوارق ما يلفت الأنظار ويستهوي الأفئدة. ثمّ ما يبني معالم اليقين وعناصر الاستقرار ودواعي الطمأنينة في النفوس.

28 - ديوان أبي العتاهية، تـ شكري فيصل، دار الملاح للطباعة والنشر، دمشق، ط1، 1965م، ص 239.

29 محمد الغزالي، ركائز الايمان، ص 16.

30 المصدر السابق، ص 18.

وكانت معجزات الأنبياء شيئاً آخر غير الرسالات التي يبشرون بها ويدعون إليها.

فطب عيسى غير إنجيله، وعصا موسى غير توراته.

إلّا أنّ الله شاء أن يجعل معجزة الرسالة الأخيرة شيئاً لا ينفصل عن جوهرها. فجعل حقائق الرسالة ودلائل صحّتها كتاباً واحداً.

وجعل من أصول الدّعوة وأساليب عرضها، البرهان الأكبر لدعوى الرسالة، والسند الأعظم لصدق صاحبها.

فآيات القرآن الكريم –بما تتضمّن من دساتير العدالة الخلقيّة والاجتماعيّة والسياسيّة، وبما تغرس في الطبائع من آثار الأدب والتربية والاستقامة– هي رسالة الإسلام وهي المعجزة، المتمثلة بالتشريع الكامل الشامل الذي لا يأتيه الباطل من أمامه ولا من خلفه، وقد يصل الفكر البشري إلى ما أقرّه الشرع ولكن بعد عناء وإخفاق.

فلتكن اذاً معجزة نبيّ الإسلام عقليّة.

وما دام البشر يحترمون عقولهم، فستبقى لهذه المعجزة قيمتها، أجل، وستبقى لهذه المعجزة قيمتها ما بقي العقل أنفس شيءٍ في الحياة، وما استلهم الناس عقولهم في الحكم على الأمور وفي قيادة الإنسانيّة الى آفاق الترقي والكمال"[31].

والباحث في النظم االإسلاميّة يجد أنّ السلوك الأخلاقي لكل فرد يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالعقيدة التي يؤمن بها، فعندما نقول أنّ الشريعة الإسلاميّة تعتبر من الركائز العلميّة للمنظومة الأخلاقيّة الإسلاميّة، فإنّنا نعني ما نقول، ذلك أنّ الشريعة الإسلاميّة التي تعتبر المنطلق العلميّ لمنظومة الأخلاق الإسلاميّة هي تلك الجذور العَقَديّة التي تضبط مسار السلوك الأخلاقي وتحدد معاني الفضيلة والرذيلة.

وقد ضرب لذلك الشيخ النابلسيّ[32] مثلا حيث قال: "بيّنت في موضوع (الإيدز) أنّه لحكمة بالغة جُعلت علاقة المعصية بنتائجها علاقة علميّة، أي علاقة سببٍ بنتيجةٍ، ففي كلّ معصية بذور نتائجها، وهذا ما يليق بالتشريع الإلهيّ، تشريع الخبير، الذي هو في حقيقته تعليمات الصانع، لكنّ هذه النتائج الوبيلة للمعاصي، ليست هي كلّ النتائج، بل بعضها، فالعاصي -فضلاً عن أنّه يخسر الدنيا- يخسر الآخرة، ولكنّ عذاب الدنيا ليس بشيء، إذا ما قيس بعذاب الآخرة"[33].

فهي دعوة الى المدنيّة الحديثة ألّا تتنكر لمناهجها العلميّة في بحث منظومة القيم الأخلاقيّة والاجتماعيّة، حيث نجدها تُبدع وتنجح في شتى الميادين العلميّة، فإذا أتت إلى مباحث المعتقدات والأخلاق، وخاصّة فيما يخص الدين الإسلاميّ، تجدها تتنكر لمناهجها، وتعود الى مناهج الفلسفات القديمة التي عفا عليها الزمن وذلك بسبب العصبيّة والعداوة القديمة.

"لقد ورّطوا أنفسهم في أخطاء فادحة حيال فهم الحياة الإنسانيّة وعلاقتها بالموجودات الموضوعيّة التي تحفّ بالإنسان، فلمّا وجدوا أنفسهم وجهاً لوجه أمام تلك الأخطاء وآثارها المؤلمة، مما سمّوه بالقلق واليأس والسقوط، ألصقوا نتائج أخطائهم تلك بطبيعة الوجود الإنسانيّ، وزعموا أنّ القلق واليأس والسقوط من مقومات وجود الإنسان، وإنّها تعدّ من أجل ذلك مشاعر إيجابيّة! وكان عليهم أن يدركوا إنّها ليست إلّا مشاعر أخطائهم وتورطهم"[34].

صديقي المثقّف المشهور، كثيراً ما تغلب أهواء الإنسان على قناعاته الفكريّة والخُلقيّة، فيخالف سلوكه قناعاته، فمعظم المذاهب تدعو إلى فعل الفضائل وتجنّب الرذائل، ولكنّ هذه الدعوة تسقط أمام رغبات النفس الجامحة، ولا تتحقق إلّا بالإيمان القوي والتزكية العالية، ضمن برنامج تربية شامل للعقل والروح والجسد.

ويقول الشيخ البوطي في ذلك: "فمن هنا، بقيت فلسفة الفلاسفة ونصائح علماء الأخلاق والاجتماع، مجرّد أحاديث تكتب وتروى وتناقش أو تقرّظ، وبقي الناس كما هم لا يتقيّدون منها بأي قيد، ولا يستجيبون إلا لحكم أهوائهم وما تمليه غوائل تلك الصفات والمَلَكات التي يتمتّعون بها"[35].

31 محمد الغزالي، عقيدة المسلم، ص 190.

32 محمد راتب النابلسي، الأستاذ المحاضر في جامعة دمشق، والخطيب والمدرس في جوامع دمشق، له عدد كبير من المؤلفات. تأملات في الإسلام. نقلاً عن الموسوعة الشاملة المرقّمة آلياً.

33 محمد راتب النابلسي، تأملات في الإسلام، دار المكتبي، دمشق، ط 3، 2004م، ص 15.

34 محمد رمضان البوطي، المذاهب التوحيدية والفلسفات المعاصرة، دار الفكر، دمشق، ط 4، 2014م، ص 288.

35محمد رمضان البوطي، الإسلام ملاذ كلّ المجتمعات، دار القلم، دمشق، ط 9، 2014م، ص 34.

وهكذا نصل إلى حقيقة واضحة أنّه لا حل للبشريّة إلاّ باتحاد العقل العلميّ الرشيد، مع الدين السماويّ الصحيح، المنقّى من شوائب التحريف وغلوّ التأويل، ومن هنا تبدأ الخطوة الأولى نحو تحقيق السلام العالميّ وتأمين مستقبل البشريّة، إنّ البشريّة عبر تاريخها الطويل لو أصغت لصوت السماء لوفّرت على نفسها مخاض تلك الحروب المدمّرة.

عندما نتكلم عن النظم الإسلاميّة، نتكلم عن قيم عاش بها أجيال من البشر عشرات القرون وآتت ثمارها في سلوك أصحابها وتركت آثارها النيّرة في حياة البشريّة، التي لم تصل الى إقرار بعض هذه القيم إلاّ في العصور المتأخرة.

٦ العقل والقدر

هو الركن الخامس من أركان الإيمان، هو الإيمان بعلم الله الكامل الذي يحيط بالزمان والمكان، فعلمه محيط بالماضي والحاضر والمستقبل، ولا يعزب عن علمه مثقال ذرة.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ ﴾ سبأ [2، 3]

فقضى كلّ شيء وقدّره تقديرا، ومعنى القدر في الشرع، هو تقدير الله تعالى كل ما يحدث في الأزل فيحدث كما قدّر له، لأن علمه محيط بكل شيء.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ۝١٢ ﴾ الطلاق [12]

ولا أريد أن أخوض بشرح تفاصيل القضاء والقدر، فهي موجودة بتفاصيلها في كتب العقيدة الإسلاميّة بشرحٍ مستفيض[36]، ولكن أريد أن أشير إلى ما ينبغي أن نفهمه من هذه القضيّة المهمّة، لأنّ كثيراً من النّاس يلتبس عليهم فهم هذا الموضوع، فيأخذون منه حجّة لتبرير الفشل والعجز والكسل، فيقول الفاشل أنا قد قدّر الله لي هذا الفشل، فأنا مهما فعلت لن أكون إنساناً ناجحاً، وكذلك يحتج بالقدر الإنسان الغارق في بحر المعاصي والآثام، فيقول قدر الله عليّ ذلك ولا رادّ لقضاء الله، وهذه المفاهيم خاطئة تماماً فهؤلاء جعلوا من القدر حجّة لمعاصيهم وفشلهم، وقد عاب الله تعالى على المشركين هذا الفهم الخاطئ عندما احتجوا بالقدر على عدم فعل الخير.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝١٧ ﴾ يس [47]

وقولهم هذا قول منكر، أنطعم من لو يشاء الله أطعمهم، وهذا احتجاج بالقدر في غير موقعه، والذين يخلطون بين القدر وإرادة الإنسان الحر، ويجعلون من القدر، حجّة لإلغاء إرادة الإنسان، ويجعلونه مجبراً على ما يفعل، فهذا تفسير خاطئ وفهم باطل مسؤليّة الإنسان عن أفعاله، ومعلوم من الآيات الكثيرة أن الله تعلى قد زوّد الإنسان بالإرادة الحرّة، وجعله مسؤولاً عن كسبه، يجزيه بما قدّمت يداه.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ۝١٤٨ ﴾ الأنعام [148]

36 أنظر/ العقيدة الإسلاميّة، عبدالرحمن حسن حبنكي، وكبرى اليقنيات الكونيّة، محمد رمضان البوطي.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٣٥ ﴾ النحل [35]

قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٥٧ أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٨ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٩ وَيَوۡمَ ﴾ الزمر [57-60]

كلّ هذه الآيات وغيرها الكثير تدلّ على مسؤليّة الإنسان عن عمله وما كسبته يداه ولا يصحّ له أن يحتجّ بالقدر على جهله وكسله وتقصيره وفشله، وكثيرٌ من الناس يستدلون بقضيّة القدر بعكس ما يريده الله من تلك الآيات مثل:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٥١ قُلۡ هَلۡ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحۡدَى ٱلۡحُسۡنَيَيۡنِۖ وَنَحۡنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمۡ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنۡ عِندِهِۦٓ أَوۡ بِأَيۡدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ٥٢ ﴾ التوبة [51، 52]

وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٞ كَلَمۡحِۭ بِٱلۡبَصَرِ ٥٠ ﴾ القمر [46-50]

أنزل الله هذه الآيات في معرض الحثّ على العمل والجهاد وبذل أقصى الجهد في سبيل إحقاق الحق، وأن لا يخشى المؤمن سوء العاقبة أو الفشل، فأن الأمر بيد الله، ولن يصيبنا إلّا ما كتب الله لنا، يعني لا نخشى الوغى.

وقد فهما الرعيل الأول من الصحابة والتابعين على ذلك فكانوا يقتحمون المخاطر ولا يخشون الأهوال والشدائد، وفي كلّ ميدان يبرعون، وجاء في آخر الأزمان من يجعل من الآيات الكريمة مبرراً لعجزه وكسله وفشله، فيقعد مع القاعدين.

هذه الآيات هي حث على العمل في الميادين كافّة وأن لا يخشى الإنسان الفشل. بل هي تشجيع على بذل الجهد في سبيل المعالي، ويؤكّد لنا الله تعالى في آيات كثيرة أنّه مع العبد المقدام المجاهد في ميادين الكفاح.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ١٨ وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا ١٩ كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ الإسراء [18-20]

تشير هذه الآية الكريمة إلى أن الإنسان له إرادة حرّة يختار مايشاء من أفعال، بل أن الله تعالى يدعم خيار هذا الإنسان ويساعده على تحقيق ما أراد إذا قدّم الإنسان الجهد المطلوب منه، كلاّ نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربّك وما كان عطاء ربّك محظوراً، فمن أراد عمل الخير وسعى له سعيه المطلوب منه فإن الله ييسّر له ذلك.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥ ﴾ التوبة [105]

فأنت أيها الإنسان مسؤل عن عملك في الدنيا ولا تحصد إلّا نتائج ما قدّمت من أفعال، فلا يحصد القمح من يزرع الشوك.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ٣١ ﴾ الشورى [30، 31]

فالإنسان هو الذي يختار ما يريد أن يفعل بإرادته الحرّ، ولله قد أعطاه القوة والإرادة والحياة لوقت معلوم يفعل بها ما يشاء وهو مسؤول عن خياراته وأفعاله، والإنسان يرى ذلك واضحاً في حياته فهو يحرص على ما ينفعه ويجتنب ما يضره، بإرادته الحرة، يقول ذلك بلسانه.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٠٠ ﴾ المؤمنون [99، 100]

فهو يطلب أن يعود لكي يعمل عملا صالحاً، يعني أنّه يعترف بأنّه يستطيع أن يعمل العمل الصالح، ولكنّه كان عن ذلك في غفلة وذهول.

وكلّ الآيات التي تشير إلى قدر الله تعالى وقضائه المحتوم هي ضمن معنى الإحاطة والعلم بكلّ بما كان وما يكون إلى قيام الساعة، ولا تعني إجبار الإنسان على أفعاله وسلبه إرادته، بل تعني إحاطة علم الله بما سيفعله هذا الإنسان منذ الأزل.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ ٤٩ ﴾ القمر [49]

ويبقى من قضيّة القضاء والقدر التسليم لله تعالى في الحوادث والمصائب الكبرى الخارجة عن إرادة الإنسان، وكذلك هناك لفتة إيمانيّة حتى لا يتحسّر الإنسان على ما فاته بعد أن بذل في ذلك جهده البالغ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ٢٢ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ٢٣ ﴾ الحديد [22، 23]

وكذلك فيها محنة لأصحاب العقول وهي ضمن بلاء الإنسان في هذه الدنيا، والباحث في قضية القضاء والقدر بعيداً عن هدي الله تعالى قد يصل إلى الضلال البعيد، حيث يريد أن يعرف أسرار علم الله تعالى اللامحدود، بعقله المحدود فيقع في الضلال المحظور.

فكم من عالمٍ عالمٍ أعيت مذاهبه وجاهلٍ جاهلٍ تلقاه مرزوقا

هذا الذي ترك الألباب حائرةً وصيّر العالم النحريرا زنديقا[37].

وبهذا يتقرر أنّ الله تعالى لا يُسأل عمّ يفعل لكمال حكته وعدله والخلق يُسؤلون.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ لَا يُسۡـَٔلُ عَمَّا يَفۡعَلُ وَهُمۡ يُسۡـَٔلُونَ ٢٣ ﴾ الأنبياء [23]

وهذا الأصل يدخلنا في باب أفعال الله تعالى وصفاته العليّة، والقاعدة عند أهل العلم: أنّ القول في الصفات كالقول في الذات، فكما نثبت لله ذاتاً حقيقيّة تليق بجلاله ولا تشبه ذوات المخلوقين، نثبت له صفاتٍ حقيقيّة تليق بجلاله لا تشبه صفات المخلوقين، من غير تكييف ولا تمثيل ولا تعطيل، فهو سبحانه لا تدركه الأبصار، هو السميع البصير العليم[38].

قال تعالى:

﴿ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١١ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ١٢ ﴾ الشورى [11، 12]

37 - ديوان أبي العتاهية، تحقيق: شكري فيصل، دار الملاح، دمشق، ط1، 1965م،ص 284.

38 - طبقات الحنابلة، ابن أبي يعلى، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار المعارف، بيروت، ج1، ص 294.

v اليوم الآخر جوعة إنسانيّة

ذات يومٍ كنت أنظر إلى التلفاز حيث تذاع مقابلة مع أحد المثقّفين المشهورين في المجال الفني، وكان المذيع يسأله: هلى تخشى ما بعد الموت؟ فأجاب بكل برودة غير مبالي: "لا، ولماذا أخشاه؟ فهو نهاية الحياة ونهاية كلّ شيء، وهو الفناء، ولا شيء بعد الموت".

ومن العجيب أنّ هذا المثقّف من البيئة الإسلاميّة، فنحن نعلم أن كثيراً ممن ينتمون إلى البيئة الإسلاميّة، قد بعدوا عن تعاليم الإسلام، إمّا بسبب التنشئة الثقافيّة في التعليم الجامعي حيث زرع المستعمر تلاميذه في قلب هذه الجامعات فغدوا دعاة مخلصين للفكر الغربي العلماني، إمّا بسبب الدراسة في الخارج، حيث يتأثّر بثقافة المجتمع الذي يتعلّم فيه حيث انتشرت المذاهب الماديّة اللاأدرية واللادينيّة. وجددوا مفهوم الدهريين القدامى الذين قد وصفهم الله بقوله تعالى:

﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ الجاثية [24]

وهؤلاء ليس لهم دليل على ما يقولون، إن هم إلّا يظنون، والظنّ لا يغني عن الحقّ شيءً، وإن حاورتهم قال أحدهم: من مات ورجع وأخبرنا أن هناك جنّة أو نار؟

وهذا دليلهم الوحيد على قولهم، بنفس منطقهم نردّ عليهم: من مات ورجع وقال: "أن ليس هناك حساب ولا جنّة ولا نار" فهذه بتلك.

أمّا نحن المؤمنين عندما نقول: أن هناك يوم آخر، يوم حساب، فلنا على ذلك الف دليل ودليل، فالله قد أرسل الرسل مبشرين ومنذرين، وقد ايّد كلّ واحداً منهم بعجزات، وأدلّة وبراهين، وقد بسطنا هذه الأدلة في مبحث (الإيمان أولاً) في أول البحث فارجع إليها.

صديقي المثقّف المشهور: إنّ الإيمان باليوم الآخر هو من أركان الإيمان، وإن لم يكن يخضع لحواسنا الماديّة فالعقل البشري يجعله من أهم مستلزمات الإيمان بالله، وقد ذكر لنا القرآن في قصّة سحرة فرعون أنّهم بعد أن تيقنوا أنّ ما فعله موسى ما هو بسحرٍ وآمنوا بالله ورسله، مباشرة أقرّوا بيوم الحساب، قبل أن يتعلموا ذلك من موسى، فكان جوابهم لفرعون الذي هدّدهم بأنّه سيصلبهم لأنّهم آمنوا قبل أن يأذن لهم، فقالوا له اقضى ما تشاء بنا، فلن نؤثرك على ما تبيّن لنا من الحق، فلن نؤثر نعيم الدنيا على نعيم الآخرة، فأقرّوا مباشرة بيوم الحساب ونعيم الجنّة وعذاب النار[39].

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ ﴾ طه [71-76]

فهؤلاء السحرة منذ اللحظة الأولى لدخولهم بالإيمان، أقروا بيوم الحساب، وكأنه من بديهات الإيمان بالله أن تؤمن بيوم الحساب.

والإيمان باليوم الآخر هو موجود بأصوله في التراث الإنساني منذ القديم، وإن اعترته بعد التشوهات التي تعرّضت لها الأصول الدينيّة مع الزمن كما زكرنا سابقاً[40].

فجميع أصحاب المذاهب الدينيّة التي وجدت على وجه الأرض لها إيمان بيوم آخر يقتصُّ به من أهل الشرّ ويثاب فيه أهل الخير، ولكن هذا الإيمان باليوم الآخر قد شابه ما شاب التعاليم الدينيّة عبر العصور القديمة. وكما ذكرت سابقاً أن وجود هذا الأصل عند كلّ الأديان على وجه الأرض هو دليل على وحدة المصدر الديني، وإن اختلفت التفاصيل بسبب ما لحق تعاليم تلك الأديان من تشوّهات من العوامل الزمنيّة والتحريفات البشريّة.

39 انظر أول البحث عند (الإيمان أولاً)

40 أنظر: هذا البحث، ص 35- 47.

والإيمان باليوم الاخر يتوافق مع الحاجة الإنسانيّة التي فطر الله الناس عليها، فكأن الإيمان باليوم الآخر يسدّ فراغاً في النفس البشريّة لا يعوّضه شيء غيره، وهذا الشعور الفطري بضرورة وجود يوم آخر يقرّه العقل السليم، وهذه الأفكار تعزّز الإيمان باليوم الآخر.

وقد قرّر الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط[41] أن لا وجود للأخلاق دون اعتقادات ثلاث: وجود الإله؛ وخلود الروح؛ والحساب بعد الموت"، وهذا ما سماه مسلّمات العقل العملي[42].

قال تلميذه فيخته: "الأخلاق من غير دين عبث، لأنّ فصل الأخلاق عن الدين يجعلها بلا معنى، لأنّ الإنسان إنّما يلتزم بالخير طاعةً لإرادة الله قبل القانون[43].

ولكن نحن المسلمين نملك الإيمان اليقينيّ بوجود اليوم الآخر، لأنّنا نملك القرآن العظيم الذي جعله الله خاتم الكتب السماويّة، وجعله معجزة بكلّ المقاييس العلميّة والعقليّة[44]، فلذلك نحن نؤمن بكل ما جاء في القرآن، وقد أثبت يوم الحساب بآيات قطعيّة الدلالة بشكل لا لبس فيه ولا ريب، ومن شكّ بيوم الحساب فقد أبطل إيمانه.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ البقرة [126]

فالإيمان باليوم الآخر هو من ضمن الأركان التي دعا إليها الأنبياء كافّة من لدن آدم عليه السلام، مروراً بكل الرسل إلى خاتم الرسل محمّد عليهم سلام الله أجمعين.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ البقرة [62]

والإيمان بالجزاء والعقاب حقيقة واقعة على الروح والجسد لا ريب فيها، فالله يبعث الأجساد يوم الحساب، حيث يُجزى كلّ إنسان بما قدمت يداه، فمن يعمل مثقال ذرة من خيرٍ ومن يعمل مثقال ذرة من شرٍ يجده في ميزان عمله يوم القيامة.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾ ﴾ الزلزلة [6-8]

فأهل الجنّة في الجنّة ينعّمون بنعيم حقيقيّ، فقد ذكر الله ذلك، بأنّهم يأكلون ويشربون، على سررٍ متقابلين، وهذا يفيد نعيماً للجسد والروح، حتّى فقد شبّهه الله بنعيم الدنيا، لتأكيد حقيقته.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا۟ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ البقرة [25]

وكذلك فقد ذكر أهل النار بأنّهم يُعذّبون حتّى تُحرق جلودهم ويبدلون جلوداً غيرها، وهذا يؤكّد أنّ العذاب يقع على الجسد والروح، ولا تكاد صفحة من صفحات القرآن العظيم إلّا يذكرنا الله فيها بيوم الحساب، وما ذلك إلّا لأهميّة الإيمان بذلك ودوره العظيم في إصلاح حياة الناس.

41 إمانويل كانط، (1724م-1804م)، في مدينة لينن غراد في بروسيا مطلة على بحر البلطيق، درس في جامعتها، ثم علّم فيها 27 سنة حتى تقاعد سنة 1797م. نقلاً عن الموسوعة الشاملة المرقمة آلياً.

42 - انظر: نقد العقل العلمي، إيمانويل كانط، ترجمة أحمد الشيباني، دار التنوير للطباعة، بيروت، ط2، 2012م، ص 186-192.

43 - انظر: خصائص العصر الحاضر، ترجمة: حسن حنفي، دار الثقافة للنشر، القاهرة، 1985م، ص 197.

44 انظر: هذا الكتاب، (القرآن معجزة الله الكبرى)

قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ٥٦ ﴾ النساء [56]

والآيات القرآنيّة في ذلك كثيرة، فلا تدع مجالاً للشكّ أو التأويل، فمن أنكر ذلك فإنّ إيمانه يحتاج إلى تصحيح.

٨ المجرم والصالح لا يستويان

وقد سُئل أحد المثقّفين المشهورين، ألا تخاف من عذاب النّار؟ قال: لا، فأنا لم أضرّ إنسانًا مطلقاً، بل على العكس أنا أساعد المحتاجين، قيل له: ولكنّك غير ملتزم بتعاليم الدين من صلاة وغيرها؟ فقال أنا قلبي نظيف، ولا أضرّ أحد والله غفور رحيم.

إنّ القضيّة الأساس بعد الإيمان بالله ورسله، أن نؤمن بأنّ القرآن كلام الله تعالى الذي لا شكّ فيه، ونحن عندما نؤمن بأنّ القرآن كلام الله تعالى، علينا أن نتبع ما يأمرنا الله به، من غير اعتراض ولا شكّ، لأنّ طاعة الله هي دليل الإيمان به، وطاعة الله تكون كما أمر تعالى، ولا تكون حسب ما أظنّ أنا أو غيري، أن تكون طائعاً لله أي أن تتبع أوامره كما جاءت في قرآنه المنزّل على خاتم رسله.

فالقرآن يأمرك بالصلاة وأداء الفرائض الأخرى، كما ينهاك عن أفعال، هي محرّمة تحريماً قطعياً، وهي كثيرة مفصّلة في آيات القرآن، فلا يجوز أن تقول: قلبك نظيف، ولكنّك تعصي الله العظيم، لأنّك لا تؤدي ما افترض عليك من صلاة وغيرها.

فهذا المثقّف يقول أن قلبه نظيف، ولكنّه يشرب الخمرة، والله قد نهى في قرآنه عن شرب الخمر والمسكرات. ذكرنا معصية واحدة وهي كبيرة، وهناك معاصٍ كثيرة يرتكبها صاحب القلب النظيف، فكيف يكون القلب نظيفاً وصاحبه يقترف المعاصي والمنكرات؟ فلا يطيع الله فيما أمر ولا ينتهي عمّا عنه نهى؟

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ٣٦ ﴾ الأحزاب [36]

يا أخي المثقّف صاحب القلب النظيف، أقسم لك أني أحب لك الخير، دقق فيما تقول، لأنّك تقول أنّك تؤمن بالله، وهذا الإيمان يفرض على المؤمن الحقيقي عندما يتأكد بأنّ هذا الأمر أمر الله تعالى، عليه أن يقول سمعنا وأطعنا، ومن يعرض عن أمر الله يتعرّض لغضبه في الدنيا وفي الآخرة، فمن يفعل ما نهى الله عنه فهو عاصٍ لله تعالى، ولا ينفعه أنّه يزعم أن قلبه نظيف، فالآية واضحة، **(وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا)** انتبه جيداً أيّها الأخ المثقّف المشهور، إن كنت مؤمناً بأنّ القرآن كلام الله، فعليك أن تفعل ما يأمرك الله في قرآنه، ولن ينفعك قلبك النظيف إذا عصيت الله ورسوله.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٢ ﴾ آل عمران [32]

فعدم الطاعة لله وللرسول تعرّض صاحبها للعذاب الشديد يوم القيامة وقد يؤدي عدم الطاعة لله وللرسول بالإنسان إلى منزلق من منزلقات الكفر والعياذ بالله تعالى.

لا أريد أن أدخل في ذكر تفاصيل الأعمال الصالحة وفضائل كل عمل منها، وإنّي على يقين أن كلّ المثقّفين يعرفون ذلك، لكن أكتفي بذكر أن العمل الصالح هو دليل على حقيقة إيمان العبد، وأنّ الإيمان الذي لا يثمر عملاً صالحاً قد يكون أقرب إلى الكفر، وأنّ العمل الصالح الخالص يؤدي بصاحبه إلى الإيمان القويّ، والإلتزام الكامل، وإنّ السلوك السيّء يؤدي بصاحبه إلى منزلق الكفر والعياذ بالله تعالى.

وإذا تتبعنا الآيات القرآنيّة نجد أنّ العمل الصالح ضرورة من ضروريات الإيمان ومن مستلزمات النجاة في يوم الحساب، ولا تكاد تجد إية في القرن تذكر الإيمان إلّا تقرن به العمل الصالح.

قالَ تعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨٢ ﴾ البقرة [82]

فهناك في القرآن أكثر من مئة آية تقرن الإيمان بالعمل الصالح، وأنا إذ أشدّد على هذا المعنى فلأنّني أسمع كثيراً من الناس يرددون عبار أنّه إذا كان مؤمن وقلبه طيب فلا خوف عليه في الآخرة، سيدخله الله الجنّة بأمان وبغير سابقة عذاب، وهذه المفاهيم الخاطئة قد انتشرت بين عامّة المسلمين حتى باتوا بظنون أنّ أحدهم إذا قال كلمة التوحيد فقد نجا يوم القيامة ولو لم يعمل الصالحات، وملأ صحيفته بالذنوب والآثام، وهذا فهم خاطئ لم يقل به أحد من أهل العلم، ويتناقض مع الآيات القرآنيّة والسنة النبويّة، ويتوافق مع مفهوم اليهود الذين يعتبرون أنفسهم شعب الله المختار الذين لا تمسهم النار، وقد أنكر الله عليهم ذلك في قرآنه.

قالَ تعَالَى: ﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨٠ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨٢ ﴾ البقرة [80-82]

ويؤكّد ذلك في آية ثانيّة.

قالَ تعَالَى: ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ وَهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۖ وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٢٤ فَكَيۡفَ إِذَا جَمَعۡنَٰهُمۡ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۖ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٥ ﴾ آل عمران [23-25]

فكلّ الآيات القرآنيّة التي تتحدث عن الحساب والجنّة والنّار توجب العذاب الشديد لمن يقول أنّه مؤمن ومع ذلك يرتكب الآثام والمعاصي، ولا يستطيع أحد أن ينكر هذه الحقيقة الثابتة بالقرآن والسنة النبويّة الصحيحة.

وقد أنكر القرآن بعتاب شديد اللهجة على الذين يظنون أنّ الحساب سهل، وأنّ الذين يجترحون السيئات ويموتون عليها سينجون من عذاب الله يوم القيامة.

قالَ تعَالَى: ﴿ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ٢١ ﴾ الجاثية [21]

ساء ما يحكمون، وإنّه لبلاء عظيم تفشّى في صفوف المؤمنين، وقد أثّر هذا المفهوم الخاطئ على سلوك المسلمين في حاتهم العامّة فباتوا لا يلقون بالاً لما يقترفونه من آثام، وكأنّهم غير محاسبين عليها، تقول لأحدهم اتقِ الله تعالى واترك تلك الآثام التي تفعلها جهاراً يقول لك إنّ الله غفور رحيم، فجعلوا من رحمة الله تعالى طريقاً إلى عصيانه، فهل من اللائق بك أيها المؤمن أن تقابل رحمة الله وكرمه عليك بالجحود والعصيان، فبئس السلوك أن ترتكب الآثام والمعاصي بعد أن أعلنت الإيمان، وقد رأينا سحرة فرعون آثروا الموت على أن يرجعوا إلى طاعة فرعون، وهل يحتمع يصحّ الفجور والإجرام مع الإيمان.

قالَ تعَالَى: ﴿ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ٢٢ ﴾ السجدة [22]

وهل يصح في عقل المؤمن أم يتصور أن الله تعالى يسوي يوم القيامة بين المجرم والمحسن، وبين الظالم والمظلوم، وبين الصالح والمفسد في الأرض، مالكم كيف تحكمون وبأيّ كتاب تقرأون، إن كنت تقرأون في القرآن، فالقرآن ما بهذا يقول.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ٣٥ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ٣٦ أَمۡ لَكُمۡ كِتَٰبٞ فِيهِ تَدۡرُسُونَ ٣٧ إِنَّ لَكُمۡ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ٣٨ أَمۡ لَكُمۡ أَيۡمَٰنٌ عَلَيۡنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمۡ لَمَا تَحۡكُمُونَ ٣٩ سَلۡهُمۡ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ٤٠ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَآءُ فَلۡيَأۡتُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ٤١ ﴾ القلم [3-41]

فحشى لله تعالى أن يسوي يوم القيامة بين المؤمن الصالح وبين الفاسق والظالم أوالذين يجترحون السيئات.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ ١٨ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡمَأۡوَىٰ نُزُلَۢا بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٩ ﴾ السجدة [18، 19]

وهذا لا يعني أنّ المؤمن العاصي هو خالد في النّار ولا يدخل الجنّة، ولكنّ هذا يحتاج إلى دقيق فهم وشرح قد فصّل القول به أهل العلم، ولكن ما أشير إليه فيما سبق ما تسرّب إلى فهم عوام المسلمين من أنّه لا يضرّ مع الإيمان معصيّة وأنّه ما دام يقول كلمة التوحيد فهو لن تمسّه النار! وهذا المفهوم قد انتشر في صفوف المسلمين حتى أفسد عليهم حياتهم وبات كثير منهم يعيش حياة اللامبالي بالمعاصي والآثام، فيفعلها بكل سهولة وراحة بال، وكأنّه ما فعل إثماً، فإن قيل له: اتق الله، قال: الله غفور رحيم عظيم المغفرة، كأنّه بفعل المنكر يتقرّب به إلى الله تعالى، ولعلّ كثيراً من هؤلاء ينطبق عليهم قوله تعالى:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ هَلۡ نُنَبِّئُكُمۡ بِٱلۡأَخۡسَرِينَ أَعۡمَٰلًا ١٠٣ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعۡيُهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ يُحۡسِنُونَ صُنۡعًا ١٠٤ ﴾ الكهف [103، 104]

فالذين يشترحون السئات وهم يظنون أنّهم لن يحاسبوا عليها فهم من الأخسرين أعمالا، مع أنّهم كانوا يظنون أنّهم يحسنون صنعا، يوم تجد كلّ نفسٍ ما عملت من خيرٍ محضرا وما عملت من سيئات مسجلة بكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة وقد أحصى كلّ شيءٍ بالدقة والتفصيل، ولو كان مثقال ذرة من خير أو مثقال ذرة من شرّ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَوۡمَ تَجِدُ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا وَمَا عَمِلَتۡ مِن سُوٓءٖ تَوَدُّ لَوۡ أَنَّ بَيۡنَهَا وَبَيۡنَهُۥٓ أَمَدَۢا بَعِيدٗاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٣٠ ﴾ آل عمران [30]

ومن كان يظنّ أنّ الله تعالى سوف لن يحاسبه على الآثام والمعاصي ويزعم أنّه لن يناله العذاب، لأنّه يزعم أنّ قلبه نظيف، فقد ظنّ بالله ظناً كاذباً فقد ظن أنّ الله يسوي بين المجرمين والصالحين، وبين المؤمنين والفاسقين، هذا ظنٌّ كاذب لا يليق بجلال الله وعدله، وسيبدو له يوم القيامة ما لم يكن يحتسب. سيعرف يوم القيامة أنّ هناك حساب دقيق.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَوۡ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ ٤٧ وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٤٨ ﴾ الزمر [47، 48]

وبيّن الله تعالى أنّ الحساب حقّ وأنّ أصحاب الأماني الكاذبة بأنّه لن ينالهم العذاب على ما اقترفوه من المعاصي والآثام، ما هي إلّا ظنون كاذبة وأماني باطلة.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ١٢٢ لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ١٢٣ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ١٢٤ ﴾ النساء [122-124]

فليس هناك كلام بعد هذا البيان الإلهي العظيم! فقد كشف أن الذين يظنون أنّهم غير محاسبين على ما اقترفوه من آثام ومعاصي، ما هي إلّا أماني كاذبة، فمن يعمل سوءاً يجز به ولا يجد من دون الله ولياً ولا نصير، فهل بعد هذا البيان من بيان، وأنا لا أريد أن أقنّط النّاس من رحمة الله تعالى، ولكن ينبغي علينا أن نبيّن الحقّ من الباطل وأن نزيل الوهم عن اليقين، فالحساب عند الله بميزان دقيق لا يخضع لوهم المتوهّمين وأماني الكاذبين وغرور الجاهلين.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ١١٥ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ١١٦ ﴾ المؤمنون [115، 116]

ولا يصح بالعقل والفطرة أن تكون هذه الدنيا عبثاً وأن يترك النّاس سدى، لا حساب ولا عقاب، فيستوي فيها المحسن والمسيء، انظر إلى هذه الآيات كيف تهزّ النفس من أعماقها، لتنبهها إلى المصير المحتوم، وتبعد ما يتسرب إلى النفس من وساس المغرضين وفهم الجاهلين المغرورين.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ٢٧ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ ٢٨ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩ ﴾ سورة ص [27-29]

والإيمان بيوم الحساب، وأنّ عذاب النار واقع على الفجّار والعصاة والكفرة، وأن النعيم يفوز به الأبرار، وهذا الإيمان هو الذي يحقّق التزام النّاس بتحقيق إصلاح سلوكهم، ثمّ بعد ذلك يأتي من يحاول أن يلغي أثار الإيمان بالجزاء، من خلال إلغاء مفعوله، بحيث يوسّع دائرة المغفرة ليدخل بها من ليس من أهلها، جهلاً وبهتاناً وغرورا، كما فعل اليهود والنصارى، فاليهود قالوا نحن شعب الله المختار ولن يعذبنا لأننا أحبياؤه، والنصارى قالوا ظلماً وعدواناً أن الله قد ضحى بابنه الوحيد على الصليب ليكفّر خطايا من آمن به.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ١٢ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ١٤ يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ١٥ وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ١٦ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٨ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ١٩ ﴾ الإنفطار [10-19]

٩ لو أنّ الله هداني لكنت من المتقين

تقول لأحد المثقفين، أما آن لك أن تلتزم بتعاليم الدين، فتترك تلك المنكرات، وتأدي الفرائض؟ يقول باللهجة العامّيّة: "إسّا الله ما هداني"، عزيز المثقّف المحترم، فلتعم أنّ الله هدى النّاس جميعاً وبيّن لهم صراطه المستقيم، فمنهم من صدّق وآمن واتبع، ومنّهم من أعرض.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۠ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ۝٤ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ ﴾ الإنسان [2-5]

فالله تعالى قد بسط وسائل الهداية لكلّ النّاس، جعل لهم السمع والبصر، ومنحهم نعمة العقل، وأرسل لهم الرسل مأيّدين بالدلة والبراهين، وبيّن لكم ذلك مراراً وتكراراً.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴾ البلد [8-10]

فالله تعالى قد بيّن لكم طريق الخير، وحذّركم من طريق الشرّ، وحتى لا يكون للنّاس حجّة أمام الله يوم القيامة قد أرسل لهم الرسل مؤيّدين بالمعجزات دليلًا وبرهان[45].

قَالَ تَعَالَى: ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٦٥ ﴾ النساء [165].

وأكّد الله تعالى هذه المعاني في آيات كثيرة، حتى لا يقول القائل يوم يرى العذاب، لو أرسلت لنا رسلاً فنتبع آياتك ونكون من الصالحين.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ۝١٣٤ ﴾ طه [134]

فكلّ الآيات تشير إلى أنّ الله قد بسط للنّاس جميعاً كلّ وسائل الهداية، وبيّن لهم سبيل النجاة من عذاي يوم القيامة، ولا حجّة لمن أعرض عن سبيل النجاة واتبع هواه، وسلك سبل الغواية والهوى.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٥٧ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٨ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٥٩ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ۝٦٠ ﴾ الزمر [57-60]

فلا عذر لك أيّها الإنسان، فقد جاءتك البيّنات، وتوالت عليك الرسل، وقامت عليك الحجة، وأنت من أعرض واستكبر، ورفض طريق الخير واتبع سبيل الهوى، وكنتَ من الغافلين. وكنتَ كلّما ذكّرك أحد بالله العظيم، اعرضت واستكبرت.

ثمّ تقول لو أن الله هداني! تحتج بالقدر زوراً وبهتاناً. الله قد هدى الجميع، وبيّن السبيل وأنزل الكتاب المبين، وأقام الحجّة على العالمين، لكنك أنت من المعرضين عن هديه، فلُم نفسك ولا تفتر على ربك ولا تجعل تقصيرك وذنبك حجة على الله، فتكون من المفترين الكاذبين، وهذا البهتان هو بذاته أعظم من المعاصي التي تفعلها. إيها الصديق اسمع قبل أن تندم يوم لا ينفع الندم، اسمع إلى قوله تعالى:

45 انظر: هذا الكتاب (الإيمان أولاً)

﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ فاطر [37]

١٠ ما كان عطاء ربك محظور

نعم هناك هداية البيان، فالله تعالى قد هدى جميع النّاس وبيّن لهم طريق الخير وحّرهم من طريق الشرّ، وهناك بالإضافة إلى هذه الهداية العامّة، هداية التوفيق إلى العمل الصالح، وهذه الهداية لا تكون بشكل عشوائي، بل لها أسباب والله يوزعها بشكل عادل، لمن يستحقها ويسعى لها سعيها، فالله لا يظلم أحد من خلقه، فالظلم بحقّه مستحيل، فقد أخبرنا بأنّ سبيل التوفيق إلى الهداية مهيّأ للجميع، وقد أخبرنا بذلك.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ﴾ الإسراء [18-20]

نحن في زمن قد انتشرت وسائل المعرفة حتى باتت متيسّرة في يد كلّ فرد، بالليل والنهار، قد أصبحت كلّ ثقافات العالم بين يديك أيّها الإنسان، فما عليك إلّا أن تسأل، فكلّ أنواع العلم ميسورة بين يديك، قل في نفسك أني أحب الخير، واصنع ما تعرفه من خير فإن الله سييسّر لك ما تجهله من الخير والحق المبين، هو ذاته من وعد بذلك.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ المائدة [15، 16]

لا يوجد على وجه الأرض من لا يعرف الخير من الشرّ، فهذه من الخصال التي خلق الله الإنسان مفطوراً عليها، فكما يستطيع الإنسان أن يميّز بين الحلو والمرّ بلسانه، كذلك يستطيع أن يميّز بين الخير والشرّ بفطرته العقليّة المجرّدة، فمن عمل بموجب هذه المعرفة الفطريّة، فصنع الخير وعمل بالعدل المعروف واجتنب الشرّ وابتعد عن الظلم والأذى يبتغي رضا الله، فإنّ الله سيهديه إلى سبيل السلام في الدنيا والآخرة، فمن وجد خيراً فليحمد الله تعالى، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلّا نفسه.

وهذا ينقلنا إلى أهمّية الأركان التعبّدية بالوصول إلى هداية التوفيق والثبات.

١١ الدين والعبادة

قال أحد المثقفين المشهورين عندما سئل هل تصلي؟ قال: والله في الحقيقة إنني لا أصلي، لكنّي قلبي نظيف وأساعد كلّ الناس، وأساعد في بناء المساجد، وغير ذلك من أعمال البرّ .

أخي المثقف المشهور، لا يوجد في الإسلام شيء زائد لا ضرورة له، فكل ما جاء به الإسلام أو أمر به، فهو حاجة ضروريّة لتحقيق الغايات العليا للإنسان كفرد وللمجتمع، وأكّد ذلك الله تعالى في آياته القرآنيّة حيث أكّد أنّه إنما يدعوكم لما يحييكم كأفراد وجماعات، دعاكم لما فيه خير لكم.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ٢٤ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢٥ ﴾ الأنفال [24، 25]

أخي المثقّف المشهور تلاحظ أن الله بدأ هذه الآية بقوله: **(يا أيّها الذين آمنوا)** أي أنتم يا من آمنتم بالله عن برهان ووصلتم إلى اليقين الذي لا شكّ ولا ريب فيه، أنتم أيها الذين آمنوا إذا كان إيمانكم صادقاً، عليكم أن تتبعوا ما يأمر به الله تعالى، لأن الله لا يأمركم إلّا بما هو خير لكم، إن كنت مؤمناً حقاً لا تستطيع أن ترفض أمر الله عزّ وجلّ، أن تكون مؤمناً يعني أن تتبع سبيل الذين آمنوا، ولا تكون مع الذين نافقوا.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥ ﴾ النساء [115]

فالعبادات كلّها خير، هي من أركان الإسلام، من تركها اسصغاراً لشأنها فهو على حافّة الكفر، ومن جحدها فقد كفر، ومن تركها كسلاً دخل في دائرة النفاق والفسوق الذي غالباً ما يؤدّي إلى هاوية الكفر، أخي المثقّف؛ لا تستطيع أن تكون مسلماً وأنت لا تصلي ولا تصوم، فأنت على خطرٍ عظيم، وتقف على حافّة الهاويّة التي قد تهوي بك إلى مكان سحيق، القضيّة خطيرة جداً، لا تترك العبادات وخاصّة الصلاة فهذا منزلق يؤدي بصاحبة إلى الكفر، ولست أبالغ في الأمر، فقد وردت في ذلك نصوص صريحة قطعيّة الثبوت قطعيّة الدلالة.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ٣٨ إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ ٣٩ فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ٤٠ عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ٤١ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ٤٢ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ٤٣ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ٤٤ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ٤٥ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤٦ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ﴾ المدثر [38-47]

إنّ أول خطوة كي يدخل الإنسان في عذاب جهنّم هي ترك الصلاة، وهي الخطوة الأولى في طريق الكفر بالدين والتكذيب بيوم الحساب، يقول أحدهم إنّ الله يخوفنا حتى نفعل هذه الأعمال ولكنّه سيرحمنا ولن يعذبنا، أليس هذا الكلام تكذيب بيوم الدين، أتجعل من كلام الله تعالى أنّه ليس بالجدّ وأنّه مجرد تخويف! هذا أراه تكذيباً لكلام الله تعالى، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً قد أكّد لنا أنّ كلامه هو فصل وليس بالهزل.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ١١ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ١٢ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ١٤ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ١٦ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ١٧ ﴾ الطارق [11-17]

أخي المثقف لا يغرّنّك بالله الغرور ولا النفس الأمّارة بالسوء، واعلم أن ترك العبادات هو أمر عظيم يؤدي بصاحبه إلى النفاق والكفر، وهذا أمرٌ حقيقيّ مقرّر بآيات القرآن والسنّة النبويّة ولا أريد أن أستفيض في هذا الموضوع، فترك العبادات هي من الذنوب الكبيرة التي تجعل غشاوة على القلب حتى تعلو قلبه وتورده مورد الكفر الصريح.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ كَلَّا بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٤ كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥ ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ ١٦ ﴾ المطففين [14-16]

١٢ الرحمة وحسن الظن

الرحمة والمغفرة وعد حق من الله لعباده، ولكن ذلك ليس بأمني المغرورين، بل ضمن شروطٍ حدّدها الله العليم الحكيم، وجعل لها باباً مفتوحاً لا يغلق حتى تأتي الشمس من مغربها، وقد هلك بسبب الفهم الخاطئ لقضيّة الرحمة والمغفرة صنفان من النّاس وهما: القانطون من رحمة الله، والمغرورون بعفوه تعالى، وقد حدّد الله لذلك طريقاً واضحاً شرح فيه التفاصيل النجاة، ليهلك من هلك عن بيّنة، وينجّي الله الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسّهم السوء، ولا هم يحزنون.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ الزمر [60، 61]

فباب المغفرة مفتوح للنّاس كافّة، مفتوح للكافر والعاصي، والملحد، فالإسلام يجبّ ما قبله، فلو كان ملحداً وأراد الإيمان ودخل في الإسلام، تغفر له كلّ ذنوبه، والإنسان العاصي يتوب إلى الله فيتوب الله عليه، وقد أخبرنا الله بذلك.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ الزمر [53]

وقد قال رسول الله: "التوبة تهدم ما قبلها والإسلام يهدم ما قبله"[46]

وقال صلى الله عليه وسلّم: " التائب من الذنب كم لا ذنب له"[47]

وينبغي أن يكون العبد بتوبته صادقاً مخلصاً، قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾ التحريم [8]

وشروط التوبة النصوحا، الندم والعزم الأكيد على عدم الرجوع للعصيان، والاستمرار بالعمل الصالح.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾ ﴾ طه [82]

وأيضاً قد وضح الله هذا المعنى بقوله تعالى:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾ النساء [17، 18]

[46] - رواه مسلم، كتاب الإيمان، رقم 121.
[47] - رواه ابن ماجة، كتاب الزهد، رقم 4250.

الله تعلى ينبهنا إلى ضرورة التوبة السريعة، وأن لا يغترّ الإنسان بحلم الله تعالى عليه، ويوضّح ذلك بتفاصيل تزيل وهم المغرورين بعفو الله ورحمته، فيؤكّد أن المغفرة لن ينالها المصرّين على ارتكاب السيئات حتى إذا حضر احدهم الموت وقد غرغرت الروح في حلقومه قال إنّي تبت الآن، وهذا خاص بالمؤمنين العصاة، لأنّ الله تعالى بيّن حالة الذين يموتون على الكفر، بقوله تعالى في نفس الآية:

وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ١٨

أنّ هؤلاء الذين يموتون وهم كفّار غير أولئك المؤمنين الذين يعملون السيئات، فينبغي الإنتباه أيها الأخوة الأعزاء فلا تغرنّكم أنفسكم ولا يغرنّكم بالله الغرور.

ولن تجد قضيّة اهتمّ بها الكتاب العظيم كاهتمامه بقضية الحساب وما فيه من الثواب للمحسنين والعقاب الشديد الأليم للمجرمين، وتكاد لا تخلوا صفحة من صفحات القرآن إلّا وفيها إشارة إلى الثواب بنعيم الجنّة للمتقين، والعذاب الشديد للمسيئين، فهل يصحّ للمؤمنين أن يتعاملوا مع هذه القضيّة الخطيرة تعامل المستريح وكأنها مجرّد وعيد للترهيب والتخويف، ويفلت منه من همهم بكلمة التوحيد وسلوكه مليئ بالذنوب والظلم والعدوان والله تعالى يؤكّد أن العذاب واقع على الفجّار والظالمين ولا يزول بأماني المغرورين.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ١٢٣ وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ١٢٤ ﴾ النساء [123، 124]

إنّ الانحراف في البنية الفكريّة هو الأساس الأول في انحراف السلوك، فقد يخطئ الإنسان ويعلم أنّه مخطئ، فيحاول في المرّة القادمة أن يتجنّب الخطأ. ولكن عندما يتحوّل الخطأ بنظره إلى صواب فتكون المصيبة أكبر! فمن عرف أنّه مريض، يطلب الدواء وقد يُشفى من مرضه، إذا واظب على أخذ العلاج المناسب، ولكنّ الذي لا يعلم أنّه مريض يتفاقم مرضه حتى يهلكه، وقد لا يدري إلا بعد فوات الأوان.

وهذا المثال يصدق على كثيرٍ من المسلمين في العصور الأخيرة؛ فقد اختلّ مفهوهم عن فكرة الإلتزام الديني، وتحوّلت بنظرهم بعض الرذائل الخلقيّة وكأنّها فضائل لا حرج فيها، وهنا مكمن الخطر الأكبر، وكلّما تعوّد الإنسان على تلك الأخطاء كلّما زاد قناعة ودفاعاً عنها حتى تخيّل له كأنها الحقّ المطلق. وهؤلاء ينطبق عليهم قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ **(11)** أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾[48].

"وأغلب النفوس الحائرة، والجماعات الجائرة، لها وجهة نظر تستسيغ بها أبشع الأفعال، فإنّ الهوى نسَجَ على بصرها حجاباً أبعدها عن رؤية الواقع، وأغراها بالجدل الباطل عمّا تتوهّمه، وجعل مذاق الحقّ في حلقها مراً!!"[49].

ويعزّز السلوك الخاطئ تلك التفاسير التي يُقدّم من خلالها الدين، والتي تقلّل من أهمية العمل وتقرّر بشكل فيه مبالغة، كأنّ الإيمان القولي يجبر كلّ تقصير بالعمل والسلوك، ويزداد العوام مبالغة في تلك المفاهيم.

ويعلّق الشيخ الغزالي بقوله: "تركنا الاتّجاه الإيجابي ثمّ شرعنا نقول النفاق قسمان: نفاق في العقيدة ونفاق في العمل، الأول كفر، والثاني عصيان، والكفر بكلمة التوحيد، والعصيان مهما قُدح مفوضٌ إلى المشيئة العليا، فلْنَرْجُ الخير!! ونتج عن ذلك انهيار هائل في بنيان الأخلاق، واستهانة مقبوحة بجملة الفضائل، ولم يهتمّ أحد ببيان أنّ النفاق العملي منتهٍ بأصحابه إلى البوار، وأنّ النفاق كثيراً ما ينشأ عن فقدان الشرف والصدق والأمانة والوفاء"[50].

48سورة البقرة، 11-12.

49محمد الغزالي، كيف نفهم الإسلام، ص 143.

50محمد الغزالي، هموم داعية، ص 74.

وبتنا في أكثر الأحيان عندما ندعو أحد الناس إلى تصحيح سلوكه؛ يقول: إنّ الله غفور رحيم، الله محبّة وسلام، ثم يقول إنّ الله غنيّ عن عذابنا، واتبعوا قولاً لا أصل له في السنة النبويّة: كن كيق شئت فإنّ الله ذو كرم، إثنان لا تقربهما الشرك بالله وَاضرار بالنّاس، وهكذا تنتشر تلك الأقاويل ومثلها كثير لتبرير الانفلات من التشريع الإلهي.

وهناك صنف من الناس يجتزئ من الدين فيأخذ أمراً ويعرض عن الباقي، إذ يقول: آمنت بالله فحسب، وهو يستعمل مسألة تسليمه بوجود الله -عزّ وجلّ- ذريعة إلى التحلّل والانعتاق من سائر قضايا الدين والصّدود عنها وهو أمر ينبغي أن يُلحظ على أنّه من صميم مأزق الدين في أنفس المنتسبين إليه؛ وقد أرجع الغزالي هذا الفهم الخاطئ إلى فرقة المرجئة التي نشأت في العصر العباسي، ولم يَعُد لها أتباع في هذا العصر ولكن تظهر بعض آرائهم في أفكار كثير من المخطئين في زمننا الحاضر.

١٣ حديث البطاقة وسوء الفهم

هناك أحاديث صحيحة واردة عن النبيّ ﷺ، تؤكّد سعة رحمة الله ومغفرته للمؤمنين، ولكن بعض النّاس عن حسن نيّة وأخرون عن سوء فهم، يريدون أن يحمّلوا هذه الأحاديث أكثر ممّا تحمل، ويريدون أن يعمّموا المشهد، ويتركون الأحاديث الأخرى، والآيات الكثيرة التي تشير إلى دقة الحساب، ونسيَ هؤلاء أن الإسلام لا يختصر بحديث واحد، ولا بدّ عندما نريد أن نفهم مسألة من مسائل هذا الدين أن نجمع كلّ الآيات والأحاديث الواردة في هذه المسألة لكي نصل إلى حلاصة الحكم الصحيح، ولا نكون من الذين وصفهم الله تعالى بأنّهم يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾ البقرة [85، 86]

فمن هذه الأحاديث الصحيحة، قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : ان الله عز و جل يستخلص رجلا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا كل سجل مد البصر ثم يقول له أتنكر من هذا شيئا أظلمتك كتبتي الحافظون قال لا يا رب فيقول ألك عذر أو حسنة فيبهت الرجل فيقول لا يا رب فيقول بلى ان لك عندنا حسنة واحدة لا ظلم اليوم عليك فتخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله الا الله وان محمدا عبده ورسوله فيقول أحضروه فيقول يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات فيقال انك لا تظلم قال فتوضع السجلات في كفة قال فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ولا يثقل شيء مع اسم الله شيء" [51].

يقول الشيخ محمد الغزالي: "إنّ فرقة من المسلمين، اسمها المرجئة، اعتمدت على حديث البطاقة، فأسقطت الأعمال عن الناس، وهوّنت الواجبات الضخمة وجرّأت على الذنوب العظام وهي فرقة ضالّة مضلّة، ولعلّها سبب سقوط الحضارة الإسلامية... واستهانة الناس بالتكاليف الشاقّة، بل هي من وراء ذهول العامّة عن القانون الإسلامي الجليل، قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ(7)وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[52]، وقوله تعالى: ﴿مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[53].

ويشرح بعض العلماء هذا الحديث عن حسن نيّة ليظهر عظمة أجر كلمة التوحيد (لا إله إلّا الله) بدون أن يبيّن كافّة الأحاديث المكمّلة لهذا المعنى، وبهذا الشرح يتسرّب إلى عقول كثير من النّاس أنّه لا تضره مع التوحيد أي معصيّة، وأنّه قد سقطت عنه سائر الفرائض وأبيحت

51 - أخرجه الترمذي، برقم: 2630، مسند أحمد بن حنبل (2/ 213)

مسند أحمد بن حنبل (2/ 213)، قال الشيخ شعيب أرناؤوط: اسناده قوي رجاله رجال الصحيح.

52سورة الزلزلة: الآيتان 7 و8.

53سورة الكهف: من الآية 49.

له كل المحرّمات، فهو يشهد أن لا إله إلّا الله، ويزيد على ذلك بأنّه يفعل بعض الواجبات، وفهو يزيد على المطلوب بموجب هذا الحديث، وينسى باقي الأحاديث والآيات التي تلزم المؤمن بالفرائض والواجبات وتحذّره من المعاصي والآثام.

ويركب هذه الموجة كثير من الماجنين، من الضالّين المضلّين من أصحاب الميول اللا دينيّة، فيقول أحدهم الله جميل يحب الجمال، الله محبة ورحمة، يظهر أنّه يحب الله، ويريد من هذا الكلام أن يغري النّاس بالمعاصي والآثام، ويقول:رحمة الله واسعة، فيخلط الحق بالبطل، فيظهر الكلام الجميل ليصل إلى الضلال المبين، مثل الشيطان الرجيم يغري الإنسان بالضلال ويقول إنّ لكم ناصح أمين.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ ﴾ الأعراف [21]

"إنّ الإسلام اليوم يحيط به أعداء مكَرةٌ مهَرة، ويحتاج إلى أهل النجدة والفداء ليدافعوا عنه؛ أمّا كلمة الإسلام التي تمرق بين الشفتين دون رصيد من إيمان أو خُلق، فلا جدوى منها "ولا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له"[54].

ولعلّها عدوى تُصيب المنتسبين إلى الدين؛ فكما حدث عند أتباع الأديان عبر التاريخ، فقد نقل لنا القرآن حالة اليهود حيث قال تعالى:

﴿ وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ البقرة [80، 81]

"فوظيفة الدين بين الناس أن يضبط مسالكهم وعلائقهم على أساس من الحقّ والقسط حتى يحيُوا في هذه الدنيا حياة لا جور فيها ولا جهل"[55].

وقد قرّر العلماء في مثل هذه الأحاديث التي وردت في "من قال لا إله إلّا الله دخل الجنة" هي كلمة إنّما قيلت في أوّل الإسلام فلم تكن الفرئض قد فُرضت ولم تكن المحرّمات قد حُرّمت وكان الحدّ الفاصل بين الإيمان والكفر هو قول لا إله إلّا الله، ومن قال لا إله إلّا الله كانت تقع عليه فتنٌ عظيمة فكان عليه أن يتحمّل أذى المشركين وكيدهم مثل ما تعرّض إليه سيدنا بلال بن رباح من تحمّل الأذى الشيديد وهو مصرٌ على كلمة أحدٌ أحد، وفي سبيلها قتل ياسر وزوجته سميّة، في ذلك الوقت من قال لا إله إلّا الله فله الجنّة.

فتصدق تلك الأحاديث على هؤلاء الذين عاشوا حياتهم بالشرك ثمّ دخلوا الإسلام بكلمة لا إله إلّا الله وماتوا قبل أن يعملوا الفرائض والواجبات، فكانت كلمة لا إله إلّا الله بالنسة لهم تمحو ما مضى من سيئاتهم ولو كانت تسعةً وتسعين سجل، وهذا المعنى ساري المفعول على من كان مثلهم.

فقد يعيش إنسان حياةً مليئة بالمجون وغيره وقد يصل إلى الكفر، ثمّ يدخل في الإسلام معلناً إيمانه بصدق وإخلاص مواجهاً لكلّ جبروت مجتمعه، ثمّ ما يلبث أن يموت بعد أيام أو ساعات فلم يمتد به الأجل ليعمل الصالحات، فهذا وأمثاله من التائبين، يكونون مثلهم يوم القيامة كمثل صاحب حديث البطاقة، وهذا لا ينطبق على المؤمنين الذين يعرضون عن الفرائض والواجبات، وينغمسون في المعاصي والآثام ويصرّون عليها، ثمّ يقول أحدهم أنا أقول لا إله إلّا الله، وأنا مؤمن، فهذا وأمثاله إن لم يتوبوا يكونوا من أصحاب الآية الكريمة[56].

لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٢٣﴾ ﴾ النساء [123]

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ البقرة [11، 12]

54الغزالي، جرعات من الحق المر، ص 100.

55الغزالي، الجانب العاطفي من الإسلام، ص 160.

56 - انظر: عقيدة المسلم، محمد الغزالي، م ن، ص 128- 145.

وهناك معنى آخر في الأحاديث من قال لا إله إلّا الله دخل الجنّة، هذا يفيد أنّه لا يخلد في النار من قال لا إله إلّا الله، ولكن لا ينفي عنه العذاب على ما اقترف من معاصي وآثام، وخاصّة أن هناك عددًا كبيرًا من الأحاديث التي تؤكّد عذاب مقترفي الآثام، وكذلك ماذا نفهم من بعض الأحاديث التي يقول فيها الرسول ﷺ: "لا يدخل الجنّة قتات"[57].

وقوله ﷺ: " لا يدخل الجنة قاطع رحم"[58].

وقوله ﷺ: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثال ذرة من كِبر"[59]، مع العلم بأنّ هؤلاء من الذين يقولون: لا إله إلّا الله، ويقيمون الصلاة ويصومون رمضان ويؤدون الزكاة، ويحجون البيت، ولكنهم مبتلون ببعض المعاصي، فقد فسّر العلماء تلك الأحاديث، بأنّ مرتكب هذه المعاصي لا يدخل الجنّة أول الداخلين، فهذا وجه من التفسير فالإسلام يفسّر بعضه بعضاً ولا يجوز أنّ نأخذ ببعض الأحاديث ونترك الأخرى، قال تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨ فَإِن زَلَلۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡكُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ٢٠٩ ﴾ البقرة [208، 209]

فالإيمان والعمل الصالح لا يفترقان، ويتضح مما تقدّم أنّه لا يجوز لأحد أن يدعي بأن الأعمال الصالحة أمر كمالي، وأن المعاصي والآثام لا تضرّ صاحبها ما دام يقول كلمة التوحيد، وهذا الفهم المجزوء يؤدي بصاحبه إلى المهالك، ويكون من الأخسرين أعمالاً، ويعتبر بعض العلماء "أنّ ما أصاب المسلمين من كوارث ونكبات هو عندما فهموا دينهم على ذلك النحو الأبتر"[60].

١٤ *الشفاعة*

وكذلك من القضايا الدينية التي أساء العوام فهمها وحمّلوها ما لا تحتمل، مسألة الشفاعة، "تعلّق أولئك العوامّ بأحاديث الشفاعة يخيّل إليك أنّ قوانين الجزاء بطلت، وأنّ نيران الجحيم توشك أن تتحوّل برداً وسلاماً على عصاة المؤمنين.

وكثيراً ما يفرّط هؤلاء الجهال في الفروض، ويقعون في أوخم الذنوب، ثمّ يقولون: أمّة محمّد ﷺ بخير! وهذا مسلك ساقط. ومحمّد ﷺ أوّل من يستنكره ويحارب ذلك المسلك، وينذر السالكين به، بأنّهم من أصحاب الجحيم. فأمّا الجزاء الحقّ، وأنّه يتناول الذرّة من الخير والشرّ، وأنّه يعمّ الناس أجمعين، فذلك صريح القرآن: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[61].

والقول بأنّ قوانين الجزاء توقف بالنسبة لأتباع نبي ما سُخف فارغ، وقد كذّب القرآنُ الكريم في مواضع شتى مزاعم الأوّلين والآخرين لمّا جمحت بهم أمانيهم إلى هذا الوهم الباطل، ولسنا نردّ ما صح من حديث الشفاعة"[62].

وهنا، يشير الغزالي إلى أحاديث وردت عن النبي ﷺ، فهو يؤكّد أنّه لا يكذّب تلك الأحاديث، ولكن ينبّه المسلمين إلى عدم المبالغة في تحميلها ما لم تحمل، وبضرورة ربطها بالآيات وبالأحاديث الأخرى والجمع بينها لنصل إلى الفهم الصحيح؛ إذ ليس من الصواب أن يُختصر الدين بحديث أو بآية، وقد حذّر الله من هذا المسلك حيث قال: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[63].

57 - صحيح البخاري، رقم 5056.

58 - صحيح البخاري، رقم 5984.

59 - صحيح مسلم، رقم 91\898.

60 محمد الغزالي، عقيدة المسلم، ص 132.

61سورة الزلزلة، 7-8.

62محمد الغزالي، عقيدة المسلم، ص 226.

63سورة البقرة: من الآية 85.

"فليس للشفاعة هذا النطاق الواسع الذي يبرّر به الخائنون إصرارهم، ولا تفيدهم أمانيهم فيها شيئاً. وقد بيّن الله سبحانه أنّ الشفاعة لا تجدي على كافر، ولا على فاسق مُثقلٌ بالخطايا"[64].

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ١٢٣ ﴾ البقرة [123]

وهذا الفهم الخاطئ أدّى عند كثير من مدّعي الإيمان إلى ترك العمل بالفرائض والواجبات الأخلاقيّة، التي فرضها الدين وكذلك أدّى إلى ارتكاب الموبقات التي نهى عنها الدين، ويتّكلون بذلك على أحاديث الشفاعة وسعة الرحمة ويعرضون عن باقي الآيات والأحاديث.

"المؤسف أن هذا القطع بين العمل والجزاء رسب في أوهام العامّة. فأساؤوا به إلى أنفسهم وإلى دينهم، ثمّ إنّ عوج سلوك المنسوبين إلى الدين وقلّة فقههم، وسوء ذوقهم، مكّن للإلحاد في الأرض، ورفع الثقة من الأديان وممثليها جملة، والعجب للمسلمين يصابون بهذه اللوثة وهم يقرؤون قول الله:

﴿ لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ١٢٣ ﴾ ا لنساء [123].

الجزاء حق، ولقد أكثر القرآن من التذكير ومن سوق النذير بعد النذير، لأنّ أكثر الناس يذهلهم ما أمامهم عمّا وراءهم"[65].

وحتى أنّه هناك كثير من الحاديث التي تشير إلى عقوبة العصاة والفجرة، فينبغي على هؤلاء أن لا يتجاهلوا تلك الأحاديث فيندمون يوم لا ينفع الندم.

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، قال رسول الله :" أنا فطكم على الحوض، وليختلجّن رجال دوني، فأقول: يا ربّ أصحابي، فيقال: إنّك لا تدري ما أحدثوا بعدك"[66].

فهؤلاء يصرفون عن الحوض مع أنّهم من أمته صلى الله عليه وسلم، ولكنّه قد بدلوا بعده وارتكبوا معاصي ومنكرات، كانت سبباً في إبعادهم عن حوضه ﷺ، فقيضّة الشفاعة ليست مفتوحة للفاسقين والفاجرين.

إنّ هذا الفهم الخاطئ لمسألة الرحمة والشفاعة، والجزاء والعقاب، هو السبب الرئيس في انحراف كثير من المسلمين عن الالتزام بتعاليم الدّين، والتهاون في تطبيق أحكامه السلوكيّة والأخلاقيّة.

ويشير الى ذلك الشيخ الغزالي بقوله: "وفساد الحضارات الدينيّة يرجع إلى تكوّن أخلاف من النّاس يحرّفون الكَلِم عن مواضعه، ويخلطون خلطاً شائناً في تطبيق أحكام الشريعة على أعمال الجوارح وخطرات القلوب، ويريدون أن يرتكبوا آثام الملحدين وينالوا جزاء الأوّابين"[67].

يحتجون بظاهر بعض الأحاديث، ويعرضون عن الأحاديث التي تبيّن وتشرح ما جاء عاماً في الأحاديث العامّة، فالدين يؤخذ كاملاً غير مجزوء، فلا نستطيع أن نحكم في قضيّة محدّدة إلّا بعد أن نجمع كلّ ما قيل فيها من آيات وكل ما ورد فيها من أحاديث، ونعود إلى فهم علماء الأصول لتلك المسألة.

64محمد الغزالي، عقيدة المسلم، ص 228.

65محمد الغزالي، عقيدة المسلم، ص 231.

66 صيح البخاري، رقم: 6576، وصحيح مسلم، رقم 2297.

67محمد الغزالي، عقيدة المسلم، ص140.

١٥ الجنّة والنار يقين لا خيال

لقد سمعت في إحدى المقابلات المتلفزة عندما سأل المذيع ضيفه المثقّف المشهور عن الجنّة والنار، قال: "أنا أعتقد أن الله عظيم كريم لن يعذب أحداً من خلقه بالنار!"

وكذلك شاهدت مقابلة مع مشهورٍ آخر، عندما سأله المذيع: أتظن نفسك في الجنة أو في النار بعد الموت؟

فقال ذلك المثقّف المشهور بالحرف: "إذا كان في جنّة ونار! فأنا من أهل الجنة.

فقال له المذيع: بماذا ستدخل الجنة؟

قال بحسن عملي مع النّاس فأنا لا أؤذي أحد..

صديقي أيها المثقف المشهور؛ مجرّد أن تقول هذه المقولة: "إذا كان في جنة ونار؟" معنى ذلك أنّك لست متأكّدًا من وجودهما، وأنت تضع ذلك في معرض الاحتمال الضعيف، وهذا يجعلك تدخل في دائرة المتشكّك بوجود الجنّة والنار، وشرط الإيمان الصحيح أن يكون مبنيًا على اليقين الذي لا ريب فيه، فمن شكّ بوجود الجنة أو النار معنى ذلك أنّه يكذّب القرآن، أو يشكّ بصحته، والله تعالى جعل أهم شرط بالإيمان أن يكون مرتكزًا على البرهان واليقين الذي يصل بصاحبه إلى درجة اليقين الذي لا ريب فيه. قال تعالى:

﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ﴾ البقرة [1-5]

فمن شكّ بوجود يوم الحساب ووجود الجنّة والنار، فقد شكّ بصدق القرآن، ومن شكّ بصدق القرآن فقد كفر بالله ورسله، والقرآن يخبرنا عن صفة الذين آمنوا أنّهم يؤمنون بصدق ما أنزل على محمّد من القرآن، وبما أنزل من قبله على الرسل السابقين، ويصفهم أنّهم بذلك يوقنون، أي يؤمنون إيماناً لا ريب فيه ولا شكّ، قال تعالى:

وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ﴾ البقرة [4-5]

وقد وصف الذين لا يستيقنون بوجود الجنة والنار بالكفر الصريح، قال تعالى:

﴿ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٢٩ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدۡخِلُهُمۡ رَبُّهُمۡ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ۝٣٠ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ وَكُنتُمۡ قَوۡمٗا مُّجۡرِمِينَ ۝٣١ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ۝٣٢ ﴾ الجاثية [29-32]

ثمّ حكم الله في قرآنه العظيم على الذين ينكرون الجنّة والنار والحساب بدخول النّار خالدين فيها. وذلك بآيات وضحة صريحة يفهما كلّ من يفهم اللغة العربيّة.

﴿ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيۡبَ فِيهَا قُلۡتُم مَّا نَدۡرِي مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ۝٣٢ وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ۝٣٣ وَقِيلَ ٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰكُمۡ كَمَا نَسِيتُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَا وَمَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٣٤ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗا وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُخۡرَجُونَ مِنۡهَا وَلَا هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ۝٣٥ ﴾ الجاثية [32-35]

صديقي المثقّف المشهور، إن كلّ القضايا التي تنتمي إلى عالم الغيب، أو ما يخصّ عالم ما بعد الموت، هي من القضايا التي لا يمكن للعقل البشري أن يبدي الرأي فيها، لأنّها ليست من القضايا التي تقع ضمن مداركه الحسّيّة، وهي تخضع للخبر المنزّل من الله تعالى على رسله، فلإنسان المثقّف إذا وصل عن طريق البحث العقلي إلى الإيمان بصدق الرسول الذي بلغته رسالته، فنحن المؤمنين بخاتم الرسل محمّد ﷺ، عندما أمنّا بأنّه رسول من الله وآمنّا بأنّ الله قد أنزل عليه القرآن العظيم، فهذا يفرض علينا أن نصدق بما أخبرنا به القرآن عن عالم ما بعد الموت، الذي يسمى عالم الغيب.

عزيزي المثقّف المشهور، فالإيمان بوجود الجنة أعدت للمتقين والنار أعدت للفجار والمجرمين، هو حقٌ لا ينكره إلّا من كفر بآيات الله وقرآنه العظيم، وقد أثبت الله في قرآنه وجود الجنّة والنار بعدد كبير من الآيات، وأكّد أنّ من يدخل الجنّة يدخلها بالجسد والروح، وكذلك من يعذّب في النّار يعذّب بالجسد والروح.

وكثيرٌ من النّاس يجعلون من أنفسهم دعاة خير وكرم يقفون على أبواب الجنّة، يدخلون الناس بغير حساب، ثمّ يقولون أنّ الله كريم لن يدخل أحداً من عباده إلى النار، لأنّ الله أعظم من أن يعذب عباده الضعفاء، ويظهرون أنفسهم بمظهر المؤمنين بكرم الله وعظيم عفوه وشدة رأفته بخلقه، وأنّه غنيٌ عن عذاب عباده في النّار، ثمّ تجدهم أشداء على هؤلاء الوعاظ الذين يحذّرون النّاس من شدة عقاب الله، ويقولون، هؤلاء الوعّاظ، يبغّضون الله لعباده، ويظهرون أنّ الله قاسٍ يحرق النّاس بنار الجحيم، وهذا لا يليق بعظمة الله وكرمه.

وأنا أقسم بالله غير حانث، أنني يا أخي المثقف، قد سمعت هذا الكلام مراراً وتكراراً على وسائل الإعلام من أهل الثقافة والفن والسياسة ورجال المجتمع الراقي كمّا يحبون أن يسموا أنفسهم، لا شكّ أنّ كلامهم فيه بعض حقّ، وهذا يظهره بمظهر المؤمن بعظمة الله وجوده وكرمه، ويبدون بمظهر الحريص على النّاس والمحبّين لهم، ولكنّهم يقولون في الله بغير علمٍ، وما يسوقهم إلى ذلك إلّا أوهام وظنون لا تغني عن الحقيقة شيء، نحن نحب العدل والخير لجميع البشر، ولكن الله تعالى قد وضع قانون ثابت في قرآنه الحق المبين، وينبغي أن نعرف أن الحقيقة المرّة خير من الوهم المريح.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُواْ هُزُوٗا ٥٦ ﴾ الكهف [56]

يا أيها الإنسان المثقّف المشهور، انتبه جيداً لما تقول، إنّ العقل والمنطق يفرضان أنّ من يملك الشيء هو الذي يحدّد شروط من يدخله، مثال: فمن يمتلك مصنعاً هو الذي يحدّد من يتوظّف في مصنعه، فلكّل وظيفة شروط وكفاءة ينبغي أن تتوفّر في من يقوم بها، ولله تعالى المثل الأعلى، فهو الذي خلق الجنّة، وهو وحده الذي يحدّد الشروط التي ينبغي أن تتوفّر في الإنسان حتى يكون من أهلها، فمن غير المنطق أن يتألّى أحدٌ على الله تعالى ويفرض دخول النّاس بشكل عشوائي لا ضابط له، تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا.

أخي المثقّف المشهور، تقول أنّك مؤمن بالله الخالق، ثمّ عندما تُسأل أتخشى من العذاب في الآخرة، تقول: أنا أظن أنّ الله كريم لن يعذّب عباده في النار، لأنّه أعظم وأكرم من أن يعذبنا فنحن عباده الضعفاء، ولن يعذب أحداً من خلقه بتلك النار القاسية، إنّما يخوفهم فقط، وهو بهم رحيم.

صديقي المثقف المؤمن، لا تستطيع أن تكون مؤمناً حقاً ثمّ تقول أنا برأي أو أنا أظنّ، أنّه سيكون كذا وكذا، فإذا كنت مؤمناً حقاً ينبغي أن تتبع قول الله لا ما توسّس به نفسك أو شياطين الإنس والجنّ، فالله تعالى وحده هو الذي يحدّد سبيل الناجين يوم القيامة، وهو وحده الذي يحدّد سبيل الهالكين في ذلك اليوم الموعود، والقضيّة لا تخضع لرأي أو لرأي أحداً من خلقه، بل هو وحده الخالق الذي يملك يوم الحساب، وهو وحده من يحدّد صفات الذين يستحقون النار، وصفات الذين يدخلون في رحمته.

يا أيها المثقّف المحبوب، أنا قد ذكرت في أوّل البحث، أنّ على الإنسان أن يفحص ما يدين به، وما يؤمن به، فلا يعتقد عقيدة ما، قبل أن يتّبع البراهين والأدلة التي تفرضها الطرق العلميّة، وقد شرحت الأدلة التي تؤدي بنا إلى الإيمان بالله الخالق، والإيمان برسله، وقد أثبتّ بالأدلة العلميّة أن آخر الرسل هو محمّد، وأن الله عندما جعله خاتم الأنبياء والمرسلين ميّزه عن الرسل السابقين وأنزل عليه قرآنه العظيم الذي جعله معجزة باقية إلى يوم الدين، وجعله السبيل لهداية البشر إلى الحق المبين، فلا يجوز أن نتكلّم في ما يخصّ عالم الغيب وما فيه من جنّة ونار وحساب وعقاب، إلّا بدليل من قول ربّ العالمين لأنّه وحده هو الحاكم في ذلك اليوم العظيم.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٨ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ٩ ﴾ الحج [6-9]

فنحن نقول بما أخبر به ربّ العالمين، وبما أنزله في كتابه العظيم القرآن المبين للسبيل القويم، ثمّ أنت أيها الأخ المثقف، من أين جئت بهذه التعاليم الكريمة، أتخذت عند الله عهداً أم عندك كتاب منه مبين؟

قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ٣٥ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ٣٦ أَمۡ لَكُمۡ كِتَٰبٞ فِيهِ تَدۡرُسُونَ ٣٧ إِنَّ لَكُمۡ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ٣٨ ﴾ ا لقلم [35-36]

يا أيها الأخ المثقف المشهور، أرجو منك أن تنتبه لما تقول، أنا أعلم أن هناك من يقول هذا الكلام عن حسن نيّة، وحب للناس وإيمان بالله، ولكن فيه قلّة معرفة بالدين.

كذلك هناك من يقوله عن خبثٍ وضغينة، يبطن الإلحاد ويظهر حبّ الناس وأنّه يريد أن يحبّب الله إلى خلقه، ويظهر عظمته وكرمه على خلقه، فيقول إنّ الله أكرم من أن يعذب خلقه في النّار، وهو بذلك يريد من النّاس أن تغوص في بحر الذنوب والعصيان، فيقول لهم عيشوا حياتكم، املؤها بالذائذ، أشبعوا كلّ رغباتكم، لا شيء حرام، كلّ شيءٍ أمامكم مباح، وبعد الموت هناك ربّ عظيم كريم يدخلكم الجنة بعفوه وجوده وكرمه، ولا تصغوا إلى هؤلاء الوعّاظ المتزمتين الذين يجعلون من الله جبارٌ على خلقه يدخلهم نار السعير، وهذا محض كذبٍ افتراء.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٩٤ قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٩٥ ﴾ آل عمران [94، 95]

عزيزي المثقّف المشهور أنظر ماذا تقول، وقارنه بقول الله تعالى وبقرآنه العظيم، واسأل نفسك، أيّهما أفضل؟ أن تتبع ظنون نفسك؟ أم انّ تتبع قول ربّك في القرآن؟ واعلم يا أيّها المثقف إن الله عظيم كريم، كما كنت تقول، يقبل من عبده الرجوع إلى الحقّ، فهو التوّاب الرحيم، راجع نفسك قبل فوات الأوان، فنحن نحب لك الهداية والرشاد، ولتعلم أن وعد الله حقّ ليس بالهزل ولا بالعبث فتعالى الله عن ذلك علواً كبيرا.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ١١٥ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ١١٦ وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ١١٧ ﴾ المؤمنون [115-117]

بعد ذلك فليعلم كلّ من يريد الحق ويحرص عليه، أنّ الله خلق الجنّة على حقيقتها كما أخبر بذلك، وهو الذي حدّد من تتوفّر فيه الشروط التي تجعله من أهل نعيمها يوم القيامة، ودخوله إليها دخولاً بالجسد والروح، وكذلك فانّ الله تعالى هو الذي خلق النّار وهو تعالى الذي يحدّد من يستحق أن يكون من أهل العذاب فيها، وأن العذاب في النار هو عذاب حقيقي، ليس معنويًا، وهو جارٍ على الجسد والروح.

ونقول هذا لأنّ الله أخبرنا في كتابه العظيم، ونعوذ به أن نكون من المتألين على الله، فنحن نؤمن بما أخبرنا ونصدقّه بيقين لا ريب فيه، وحالنا كما قال ذلك الصحابي الجليل عندما سأله رسول الله: كيف أصبحت يا حارث؟ قال أصبحت مؤمناً حقاً، فقال: انظر ما تقول، فإن

لكلّ شيءٍ حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟ فقال قد عزفت نفسي عن الدنيا، وأسهرت لذلك ليلي، وأظأت نهاري، وكأنّي أنظر إلى عرش ربي بارزاً وكأني أنظر إلى أهل الجنّة في الجنّة يتزاورون، وكاني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها، فقال: عرفت يا حارث فالزم"[68].

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗا وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗا وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ١٢٢ لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ١٢٣ ﴾ النساء [122، 123]

وليحذر كلّ الناس فلا يقول احدٌ، أنا ما علمت وكنت أتبع ما يقال على وسائل الإعلام، وقد وقعت وما كنت أدري، اعلم أيها الإنسان أنّك غير معذور، فلك عقل ولسان وشفتان وربّك قد ساق إليك كلّ وسائل الهدية فكنت من المعرضين، والله يظهر لك يوم القيامة كلّ الحجج والبينات، وتشهد عليك نفسك وجورحك، بما قد بان لك من الحق، فآثرت الباطل بملء إرادتك.

والسؤال هل لمثل هذا أو غيره عذرٌ أن يلقى الله وهو لا يعرف؟ أيها الإنسان عرفت كلّ تلك المعارف وسافرت في أنحاء البلاد وأتقنت لغات أجنبيّة وأدرت ثروة كبيرة، ثمّ جهلت أمر دينك، وصدق الشاعر حين قال:

ومن البلية أن ترى لك أخاً في صورة الرجل السميع المبصر

فطنٌ لكلّ مصيبةٍ في ماله وإذا يُصاب بدينه لم يشعرِ[69]

فهل لك عذرٌ أيّها المثقف إن لم تعرف؟ ثمّ كيف عرفت كلّ تلك المعارف الدنيوية، وغفلت عن ما ينفعك في الآخرة؟ ألم تعيش في الحياة كما عاش غيرك؟ كيف عرف كثيرٌ من أقاربك واصحابك وأنت لم تعرف؟ ألم تكن تتلى عليك المواعظ فكنت تفر منها كما يفر الملدوغ من الأفعى؟

والله إني أسمع بأذني عندما أكون في مجلس عزاء فيدخل أحد الوعّاظ، فيقول صاحبٌ لصاحبه، أسرع بنا نخرج قبل أن يبدأ الواعظ بالحديث، وهذا يعني أنّه قد تيسّرت لك كلّ وسائل البيان ولكنك كنت تعرض عن التذكرة.

الله هو الخالق وهو الذي يحدّد شروط دخول الجنّة، وهو وحده الذي يحدّد من يستحق دخول النّار، فكثير من النّاس اليوم يجعلون من أنفسهم وأهوائهم مقايس للحق والباطل، إن رحمة الله واسعة تسع كلّ شيء، وعفو الله أعظم من كلّ شيء، وهو كلام جميل، ولكن له شروط ومواقع، ولا يقال عبثاً ولا جُزافاً.

الله تعالى قد فصّل كلّ ذلك في آياته العظيمة، فإذا كان الله الخالق الذي تقول أنّك مؤمن به، قد أخبرك عن تفاصيل عالم الغيب، وعن أحداث ما يحصل بعد الموت، ثمّ تأتي أيّها المثقف المشهور لتقول: أنا برأي أو أظنّ أنّه سيكون كذا وكذا! فهذا أقّل ما يقال فيه أنّك سهوت عمّا آمنت به، أو أنّك لا تعرف ما تؤمن به، أو أنّك لا تصدّق قول الله تعالى؟ والقول الأخير أخطرها (وهو كفرٌ صريح) انتبه وانظر ماذا تقول، فأنت أيها المثقف عزيز على قلوبنا، ونحب لك الخير فلا تكن من المعرضين.

68 المعجم الكبير، ص 267.

69 كتاب الأذكياء، ان الجوزي، تحقيق: محمد مرسي الخولي، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط1، 1985م، ص 67.

١٦ خلاصة القول

أخي المثقف المشهور بكل حب واحترام، أقول: ينبغي أن تعلم، أنّ المؤمن بعد أن يدخل في الإسلام، عن قناعة وبرهان، فيكون مؤمناً أيماناً بقينياً لا ريب ولاشك فيه، فهذا الإيمان يفرض على صاحبه أن يلتزم بأوامر الله تعالى، ويجب عليه أن ينتهي عن ما نهى عن فعله، فيقول كما ينبغي للمؤمن أن يقول عندما يسمع أمر الله تعالى: (سمعنا وأطعنا غفرانك ربّنا وإليك المصير)، فلا يليق بالمؤمن الحقيقي الصادق أن يعترض على أمر الله عزّ وجلّ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾ الأحزاب [36]

والقضيّة الأهمّ؛ أنّ الله تعالى إذا حرّم شيئاً لا يحرّمه كبتاً للحريّة، إنّما يحرّمه لأن فيه ضرر ما، قد يكون هذا الضرر للفرد أو للمجتمع، في العاجل أو في الآجل، مادي أو معنوي، فهو تعالى يحلّ لكم الطيبات ويحرّم عليكم الخبائث، فالطبيب المختص المشهود له بالراعة والصدق، يصف للمريض الدواء المناسب ويحذّره من الأطعمة المضرّة به، فهل من الحكمة أن لا ينفّذ المريض نصائح الطبيب، بل إنّه من الغباء أن يعترض المريض على نصائح الطبيب المشهود له بالبراعة.

أخي المثقّف المشهور أنت آمنت أن القرآن هو كلام ربّ العالمين لاريب ولا شكّ فيه، وهذا يفرض عليك أن لا تقول قولاً يخالف ما جاء بهذا القرآن، لذلك أنا أقول لك: يا أخي العزيز يجب عليك أن تعلم القليل الضروري من الدين، وإن استطعت أن تعلم كثيراً فكلّما زدت من العلم ازددت من الخير.

فالدين واضحٌ في تعاليمه، والمسألة الأهم عند المثقفين ليس جهله بتعاليم الدين وأحكامه فهي معروفة عنده، ولكن المشكلة الكبرى هي في مفهومه لهذه الأحكام، فيظنّ كثيرٌ منهم أنّه مخيرٌ في قبولها أو تركها، ويغيب عنه أنّها أمرٌ من الله تعالى، ونحن كمؤمنين عندما نسمع قول الله تعالى، لا ينبغي أن يكون لنا رأي مخالف، في المسألة التي حدّد الله تفاصيلها، فلايجوز لأحد أن يكون له رأي مخالف فهذا يؤدي بصاحبه إلى درجة الكفر بالله تعالى.

ولا أريد أن أعدد الأمثلة فهي كثيرة، مثال ذلك: يُسال أحد المثقّفين المشهورين عن الزواج المدني فيقول: هذه حريّة شخصيّة، ثمّ يُسأل عن المساكنة فيقول: أنا برأي هذه مسألة حريّة شخصيّة، والعجيب أنّه يقول أنّه مؤمن يصوم ويصليّ ويحجّ، أخي المثقّف المشهور إذا كنت غير مؤمن بالإسلام فأنت تقول ما تشاء برأيك.

ولكنّك عندما تقول أنّك مؤمن بالإسلام، هذا يعني أنّك مؤمن بأنّ القرآن كلام الله الذي لا خطأ فيه، فلا يجوز لك أن تقول عن شيءٍ حرّمه الله بآياته، أنّه حريّة شخصيّة يفعلها من يشاء، فيفهم منك المستمع أنّك تبيح ذلك، وقد تكون غير مبيحٍ له! عليك أن تقول: أنّ هذا الأمر في ديننا حرام، فلا يجوز للمسلم أن يفعل ذلك، أمّا غير المسلمين فلهم شأنٌ آخر، فهذا قد ثبت بعلم الاجتماع أنه يؤدي إلى فساد عريض، ولكنّ القاعدة عندنا أن نحرّم ما حرّم الله، سواء عرفنا مضار ذلك المحرّم أم لم نعرف، هذا إذا كنّا مؤمنين.

قال ﷺ: "تُعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأيّ قلبٍ أُشربها نكت نكتةٌ سوداء فيصير أسودًا مرباداً كالكوز مجخياً، لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكرا إلّا ما أُشرب من هواه"[70].

أمّا الأعمال الصالحة فهي تزيد في الإيمان حتى يصير قلبه أبيضًا لا تضره الفتن....

وقد يُصرف الإنسان عن الإيمان بسبب ذنوبه وعدم التزامه بأمر الله..

قَالَ تَعَالَى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ

70 أخرجه مسلم برقم 231\ والبزّار، برقم: 2844.

لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ الأعراف [146]

وهذه الآية واضحة بشكل لا ريب فيه أن عقوبة من يتكبّر على الحق ويعرض عن اتباعه، ويتبع سبيل الغيّ، تكون عقوبته أن يصرفه الله عن طريق الهدى والإيمان، وفي آية ثانيّة تكون عقوبتهم بأن تصبهم الغفلة.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾ الصف [5]

فعقوبة الذي يزيغ عن طريق الحقّ، ويسير في طريق الباطل، مصراً عليها، معرضاً عن كلّ ما ييسره الله تعالى له من والوعظ والهداية، وكل ما يرسله له من إشارات تكون عقوبته، أن يزيغ قلبه عن الهدى ويجرفه تيار الفساد والفجور، فهم لا يرجعون.

وأختم بهذه الفقرة التي قد تكون مكرّرة، ولكنها بمعانٍ جديدة لتؤكّد ما تقدّم وتزيد الأمر وضوحاً، وهي نموذج لغيرها من المسائل التي يُنظر إليها بنفس المقياس.

سُئل أحد المثقفين المشهورين، ما رأيك بالمثليين؟ قال: برأي هي مسألة شخصيّة، لا شأن للدين فيها، وكان قد أجاب في مقدمة الحوار أنّه رجلٌ مؤمن بالله يؤدي الصلاة ويصوم رمضان، يا أيّها المثقف المشهور، تقول أنّك مؤمن تؤدي الصلاة وتصوم رمضان، فهذا يعني أنّك مسلم تؤمن بأنّ القرآن كلام الله، ينبغي عليك أن تعرف أنّ القرآن يحرّم هذه العلاقات المثليّة تحريما صريحاً لا لبث فيه، ويحتّم عقوبة شديدة على من يرتكبها، فكيف تقول أنّك مؤمن مسلم ثمّ تقول: برأي أنها مسألة شخصيّة لا علاقة للدين بها؟

وهذا يظهر أنّك لا تعلم أنّ الدين يحرّمها تحريماً قطعياً، هذه مصيبة كبرى أن تكون مؤمناً مسلماً ولا تعلم معلوماً من الدين بالضرورة، أمّا إذا كنت تعلم أنّ القرآن يحرّمها ومع ذلك تقول لا شان للدين فيها، فهذه مصيبة أكبر، أنتبه أيها الصديق، عليك أن تتطلع على الأشياء التي يحرّمها الدين، حتى لا تقع بالمحظور، أرجوك رجاء محبٍ حريص عليك أن تنتبه أكثر لما تقول وأن تذكر أنّك مؤمن فلا تقول ما ينقض إيمانك من حيث تدري أو لا تدري.

هذا مثال واحد من أمثلة كثيرة، فيما يخصّ المحرّمات التي حرّمها الإسلام، فأنت أيها المثقف، عندما تقول أنّك مؤمن تصوم وتصلي وتحجّ، هذا يعني أنّك مسلم مؤمن بالقرآن، وهذا يفرض عليك أن تتطلع من باب الثقافة على الحدّ الأدنى من العلوم الإسلاميّة، حتى لا توقع نفسك في الحرج، فتظهر كأنّك لا تعرف شيئاً عن الإسلام، أو تظهر كأنّك تكذب بالدين وهذا أمر خطير.

١٧ الخاتمة

أخي الحبيب يا من حملت لقب **"**المثقّف المشهور**"** ها قد وصلنا إلى آخر الرسالة، وما أردت لك إلّا الخير، وما كتبت هذا لأحزنك بل لتكون من البارعين حقاً، أنت اليوم بارعٌ في اختصاصك جديرٌ بالتكريم وحسن الثناء.

بعد ما تقدّم يتضح لنا أنّ الإشكاليّة ليس في الدين ولا في العقل، وإنّما في المنهج الذي يدخل فيه المثقّف إلى ساحة الدين.

١٨ النتائج

١- إنّ المنطق يفرض على المثقّف أن يعرف قواعد أي علمٍ قبل أن يخوض فيه، ومن باب أولى أن يعرف قدرًا من الدين قبل أن يتحدّث عنه.

٢- العقل العلمي يقول أن الصانع هو الذي يعرف ما يصلح صنعته، وهذا يفرض أن الخالق هو أعلم بما يصلح خلقه أفرادًا وجماعات، فعلى الإنسان العقل أن يتأكّد من صحة رسل الخالق، ولك بالأدلة العلميّةأ وأفضل طريقة في عصرنا الإطلاع على الإعجازالعلمي القرآني أولًا والوجوه الأخرى.

٣- البحث يؤكّد أن الله الخالق قد أرسل لخلقه الرسل وأيّدهم بالمعجزات دليلاً على صدقهم، وآخر الرسل محمّد وأعظم المعجزات القرآن، وفيه منظومة متكامل تشمل كافّة العلاقات الإنسانيّة وتتوافق مع الفطرة والمقررات العلمية.

٤- ينبغي على المثقف المشهور قبل أن يقول رأيه في مسألة أن يعرف رأي الدين، فإن كان قد آمن بالدين فلا يجوز أن يكون رأيه مخالف لتعاليم الدين.

إن اتباع الدين ليس أمرًا مخجلًا أو رجعي ولا يناقض الحرّيه الشخصيّة، بل هو الضمان الأعلى لحقوق الفرد والمجتمع، فشريعة الله سبقت شرعة حقوق الإنسان بإقرار حفظ الحريّات الشخصيّة.

١٩ التوصيات

١- اجعل خطابق الثقافي ضمن المنهجيّة العلميّة الراقية، فلا تتكلّم بفروع علمٍ إلّا بعد أن تعرف أصوله، فمن تكلّم بغير معرفةٍ ضرّ وأضر، وخاصّة بأحكام الدين، كمنتحل مهنة الطب يضرّ الناس بعلاجه.

٢- لا تحتجّ بالقدر. وابذل للدين جهدًا كما بذلت لتخصّصك، فأنت لم لتولد بارعًا فيه، بل سهرت الليالي وقرأت المجلدات حتى نلت المكانة المرموقة، ونقدّر لك ذلك، فالدين يستحقّ جزءً من جهدك، فإذا أضفت قدرًا من علم الدين إلى مقامك المرموق تحقق الخير الكثير لك ولجمهورك، وكلمتك لها أثر يفوق أثر الواعظين.

٣- على وسائل الإعلام والمصّات الثقافيّة أن تتحمل مسؤوليتها في انتاج خطاب ثقافي رصين يقدّم الدين بلغة العصر.